

سُورَةُ الْمُطَفِّينَ

حِينَ يَخْتَلُّ الْمِيزَانُ وَتَنْكَشِفُ السَّرَائِرُ



تأليف: .

رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

حِينَ يَخْتَلُّ الْمِيزَانُ وَتُكْشَفُ السَّرَائِرُ

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

حين يبدأ فساد العالم من حبةٍ ناقصة

ليست سورة المطففين حديثاً عابراً عن سوقٍ قديم، ولا موعظةً تجاريةً محصورةً في كيل الحبوب ووزن السلع، وإن كان ذلك أول أبوابها وأوضح صورها؛ إنما هي سورة الميزان حين ينتقل من يد البائع إلى أعماق الإنسان، ومن حركة الكفة في الأسواق إلى حركة الضمير في الصدور، ومن مقدارٍ ناقص في وعاء إلى عدالةٍ ناقصة في حياة كاملة. إنها تكشف أن الفساد الكبير لا يبدأ دائماً بصوتٍ مرتفع أو جريمةٍ هائلة، بل قد يبدأ بحبةٍ صغيرةٍ تُنتزع خفيةً من حق إنسان، وبشيءٍ يسيرٍ يُستكثر على صاحبه، ثم يتكرر النقص حتى تتحول الخيانة من حادثة إلى عادة، ومن فعلٍ عابرٍ إلى طبيعةٍ مستقرة، ومن انحرافٍ في الميزان إلى انحرافٍ في رؤية العالم.

تفتح السورة بكلمةٍ تهز القلب قبل أن يفرغ العقل من تأملها: ﴿وَيْلٌ﴾. ليست افتتاحاً هادئاً يمكن للنفس أن تمر به مسترخية، بل جرس إنذارٍ يُوقظ الضمير من غفلته، ويضع الإنسان منذ اللحظة الأولى أمام هاويةٍ لم يحفرها يديه دفعةً واحدة، وإنما حفرها بما ظنه نقصاً صغيراً لا يرى. ووراء هذا الافتتاح حقيقةٌ مرزلة: أن الحقوق لا تصغر عند الله لأن أصحابها ضعفاء، وأن المقدار الضئيل المسلوب لا يصبح مباحاً لأن السارق لم يمد يده إلى الكثير، وأن الجريمة الأخلاقية لا تُقاس بحجم الشيء المأخوذ وحده، بل بما تكشفه من فساد

القلب؛ فقد تكون الحبة المسروقة أهون في ميزان المال، ولكنها في ميزان الروح شهادةً على نفسٍ رضيت أن تبني منفعتها فوق خسارة غيرها.

والمطفف ليس مجرد إنسانٍ يعبث بالمكّال؛ إنه نموذجٌ نفسي يتكرر في الأزمنة والبيئات والعلاقات. هو الذي يريد حقوقه تامة، ثم يتثاقل حين يؤدي حقوق الناس؛ يغضب من كلمةٍ جرحته، ولا يرى الكلمات التي غرسها سكاكين في أرواح الآخرين؛ يطلب الوفاء ولا يفي، وينشد العدل لنفسه ولا يعدل، ويستنكر أن يُساء الظن به، بينما يبني أحكامه على الظنون؛ يريد من الناس أن يفهموا ظروفه كلها، ولا يمنحهم لحظةً واحدةً لشرحوا ظروفهم. إن التطفيف بهذه الدلالة ليس مهنةً يمارسها بعض التجار، بل مرضٌ قد يتسلل إلى الأبوة والصدقة، وإلى الحكم والسياسة، وإلى الكأبة والخطاب، وإلى التدين نفسه؛ إذ يستطيع المرء أن يكون دقيقاً في وزن البضائع، ثم يطفف في وزن الأشخاص، فيرفع من يحب فوق منزلته، ويسلب من يكره فضله كله.

ومن هنا لا تعالج السورة فساد المعاملة منفصلاً عن فساد التصور؛ لأنها تردّ التطفيف إلى جذره العميق: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١٠٠﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. إن الذي يختل في داخله ميزان الآخرة، يسهل أن تختل في يده موازين الأرض. وحين يضعف استحضار الوقوف بين يدي الله، يتحول الغياب عن أعين الناس إلى فرصة، وتصبح القدرة على الإفلات دليلاً زائفاً على البراءة، ويحسب الإنسان أن ما لم يكتشفه الخلق قد سقط من حساب الخالق. لكن السورة تعيد بناء الرقابة من داخل النفس؛ فلا يكون الصدق مرهوناً بنظر الشرطي، ولا الأمانة مشروطةً بوجود الرقيب، بل يصبح القلب واقفاً في السوق كأنه واقفٌ في ساحة القيامة، ويرى وراء كل ميزان أرضي ميزاناً لا يميل، ووراء كل حق مهضوم يوماً يقوم فيه الناس لرب العالمين.

ثم تفتح السورة سجّلين متقابلين: سَجِّينَ وَعَلَّيْنِ؛ وكأن الحياة، بما فيها من أعمالٍ تتناثر ويظن أصحابها أنها ذهبت، ليست فوضى بلا ذاكرة، وإنما كتابةً دقيقة لا يضيع منها شيء. كل نقصٍ أحدثه الإنسان في حقوق غيره يُثبت كاملاً في كتابه، وكل أمانة أداها حين كان قادراً على الخيانة ترتفع به، وكل لحظةٍ غلب فيها شهوته من أجل الحق تتحول إلى نورٍ محفوظ. إن البشر قد ينسون، والأسواق قد تُغلق، والعقود قد تتمزق، والشهود قد يموتون، غير أن العمل نفسه لا يموت؛ إنه يغادر اليد ليقم في الكتاب، ويخرج من الزمن ليُستقبل في الأبد.

ولا تكتفي السورة بوصف المصير، بل تكشف كيف تُصنع القسوة في القلب؛ فالذنوب لا تمر على الروح دون أثر، وإن مرّت على اللسان في سهولة الاعتذار. يقول الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، فيكشف لنا أن القلب لا يعمي فجأة، بل تتراكم عليه آثار الكسب طبقةً بعد طبقة؛ ذنبٌ يُستهان به، ثم ذنبٌ يُبرّر، ثم ذنبٌ يُدافع عنه، حتى لا يعود الإنسان عاجزاً عن رؤية الحق فحسب، بل يصبح منزعاً من ظهوره، ساخراً من أهله، مستثقلاً لكل صوتٍ يذكره بما فقدّه. فالران ليس سواد المعصية وحدها، بل سواد الإصرار عليها حتى تتحول الحساسية الأخلاقية في الإنسان إلى جلدٍ ميت لا يتألم.

وفي قلب السورة مواجهةٌ بين رؤيتين للحياة: رؤية المجرمين الذين يضحكون من المؤمنين، ويتغامزون بهم، ويجعلون الاستقامة مادةً للسخرية؛ ورؤية الآخرة التي تقلب المشهد كله، فلا يبقى الضحك دليل الغلبة، ولا الحزن دليل الهزيمة. كم من إنسانٍ ضحك لحظةً لأنه ظن أنه انتصر، بينما كان ضحكه يُكتب عليه؛ وكم من مؤمنٍ مرّ مكسور الخاطر بين الشامتين، ولم يكن يعلم أن صبره يُهيئ له مقاماً يرى منه انقلاب الموازين! إن السورة لا تُسكّن ألم المؤمن بوعدٍ عاطفي مبهم، بل تمنحه تفسيراً للتاريخ: ليست كل نهايةٍ تراها العين هي النهاية،

ولست كل محكمة في الأرض هي المحكمة الأخيرة، ولا كل غالب في مشهدٍ عابر ناجحاً حين يُرفع الستار عن المشهد الكامل.

وسيقوم منهج هذا الكتاب على قراءة السورة في وحدتها المتماسكة، مع الوقوف عند آياتها ومقاطعها وقوفاً يجمع بين دلالة اللفظ وسياقه، وبين هداية المعنى وحركته في واقع الإنسان. لن نفصل التأمل الأدبي عن الأصل التفسيري، ولن نحمل النص ما لا يحتمل، بل نطلق من ظاهر الآيات ولغتها ونظمها ومقصدها، ثم نستضيء بذلك في قراءة النفس والمجتمع والحياة. فالتدبر ليس أن نستبدل مراد الله بخواطرنا، وإنما أن نفتح للآية أبواب القلب بعد أن نفهم بابها الأول، وأن ندع نورها يعبر من زمن التنزيل إلى أزمنتنا دون أن تقتلعها من سياقها أو نجسها في الماضي.

وستتبع في فصول الكتاب الحركة البنائية العجيبة للسورة: من وعيد المطففين إلى بعث الواقفين بين يدي رب العالمين، ومن كتاب الفجار إلى الران الذي يغطي القلوب، ومن الحجاب عن الله إلى الجحيم، ثم من كتاب الأبرار إلى نعيمهم المختوم بالحريق، ومن تنافس أهل الدنيا على المقادير الزائلة إلى النداء الخالد: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾، ثم نختم بانقلاب مشهد السخرية، حين يُعاد توزيع الضحك والحزن والكرامة وفق ميزان الحق لا وفق انطباعات اللحظة.

هذه إذن سورةٌ تعيد وزن الإنسان قبل أن تعيد وزن الأشياء. تأتي إلى ضميرك فلا تسألك أولاً: كم أخذت؟ بل تسألك: أيُّ قلبٍ جعلك تستحل النقص؟ ولا تسألك: هل كنت تاجراً؟ بل: هل كنت منصفاً؟ ولا تكتفي بأن تمنع يدك من بخس المكييل، بل تريد أن تحرر بصيرتك من كل ميزانٍ ذي كفتين: واحدةٍ لنفسك، وأخرى للناس.

سنمضي في هذه السورة كمن يدخل داراً امتلأت بالموازن؛ في كل غرفةٍ منها ميزان، وفي كل مشهدٍ امتحان، حتى نصل إلى الحقيقة التي لا يستطيع الإنسان الهرب منها: أنك تستطيع أن تطفف في أعين الخلق، ولكنك لا تستطيع أن تنقص شيئاً من علم الله؛ وتستطيع أن تخفي مقداراً عن المشتري، ولكنك لا تستطيع أن تحو أثره من كتابك؛ وتستطيع أن تقنع العالم بعدالتك، لكنك ستقف يوماً بين يدي من لا تخفى عليه حركة الكفة، ولا رجفة اليد، ولا الخيانة التي ولدت في القلب قبل أن تظهر في الميزان.

الفصل الأول

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ: حين تُقاس أخلاق الإنسان بما يمنحه لا بما يأخذه

قال الله تعالى:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۖ الَّذِينَ إِذَا اكْتُلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۖ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾

تبدأ السورة بكلمة لا تمهد لوقعها، ولا تمنح القلب مهلة ليتحصن منها: ﴿وَيْلٌ﴾. تبيء حكم يهبط من السماء على فعلٍ قد يراه الناس صغيراً، وكأن القرآن يريد منذ البدء أن يصحح خللاً آخر في موازيننا: فنحن نقيس الجرائم غالباً بحجمها الظاهر، أما الوحي فيقيسها بحجم الخلل الذي تكشفه في القلب، وبمقدار ما تهدمه من الثقة بين الناس، وبما تفتحه من أبواب الفساد إذا تحولت من استثناءٍ مستنكر إلى عادةٍ مقبولة.

قد تكون الكمية المسلوقة يسيرة، ولكن النفس التي استباححت سلبها ليست مسألة يسيرة؛ لأن الذي يرضى أن ينقص من حق أخيه مقداراً ضئيلاً حين يأمن انكشافه، قد أعلن في باطنه أن مصلحته أغلى من العدل، وأن غياب الرقيب البشري يكفي لتعطيل حكم الله، وأن الحق لا يكون حقاً لذاته، بل بقدر ما يستطيع صاحبه حمايته. ومن هنا جاء الوعيد متناسباً، لا مع حجم الحبة الناقصة وحدها، بل مع ذلك الانقلاب الأخلاقي الذي جعل الإنسان يرى ضعف الآخر فرصة، وثقته به غنيمة، وغفلته باباً للاعتداء عليه.

إن كلمة التطفيف في جرسها توحى بالقليل؛ فهي لا تتحدث ابتداءً عن سرقة التجارة كلها، وإنما عن نقصٍ خفي في المكيال والميزان، عن مقدارٍ يظن صاحبه أنه لا يلفت نظراً ولا يثير خصومة. لكن هذا القليل هو موضع الاختبار الأشد؛ لأن الإنسان قد يمتنع عن الجريمة الكبيرة خوفاً من العقوبة أو الفضيحة، ثم تكشفه التفاصيل التي لا يخشى أن يحاسب عليها. وهناك، في مساحة الأشياء الصغيرة، تظهر حقيقة الأمانة: في وزنٍ لا يراجع المشتري، وفي مبلغ زائد لا ينتبه إليه صاحبه، وفي عملٍ يستطيع الموظف أن يقصّر فيه دون أن يكشف، وفي وعدٍ لا يملك الطرف الضعيف وسيلةً لإلزام صاحبه به.

إن الأخلاق لا تظهر بأصدق صورها حين تكون تحت الأضواء، بل حين يكون الإنسان وحده أمام منفعةٍ محرمة، لا يحول بينه وبينها إلا الله. وما أكثر الذين يستطيعون صناعة سمعةٍ ناصعة، ولكنهم يعجزون عن صناعة سريرةٍ ناصعة؛ لأن السمعة تحتاج إلى إقناع الناس، أما السريرة فتحتاج إلى مراقبة الله. ومن أجل ذلك كان السوق من أدق ساحات الإيمان؛ ففيه تتزاحم الحاجة والرغبة، ويقف الربح قريباً من الضمير، ويستطيع الإنسان أن يزيد ماله بشيءٍ من النقص في حق غيره، فتكشف آنذاك حقيقة ما استقر في قلبه: أرى الرزق عطيةً من الله لا تُنال بمعصيته، أم يراه غنيمةً ينتزعها بقدر ما يحسن الاحتياـل؟

الازدواج الأخلاقي: ميزانٌ للنفس وميزانٌ للناس

لم تقل الآيات إن المطففين ينقصون في كل حال؛ بل رسمت خللهم بدقةٍ أشد إدانة: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾. إنهم يعرفون تماماً معنى الحق الكامل حين يكون الحق لهم، ويملكون حساسيةً دقيقة تجاه أي نقصٍ يصيب مصالحهم، فلا يقبلون تنازلاً ولا

يغفلون عن مقدار، وربما بالغوا في الفحص والاعتراض والمطالبة. ولكن هذه الدقة نفسها تلاثى حين ينتقل الحق إلى غيرهم: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

وهنا تكمن بشاعة التطفيف: إنه ليس جهلاً بالعدل، بل تطبيقاً انتقائياً له. المطفف لا يجهل أن النقص ظلم، والدليل أنه لا يرضاه لنفسه؛ لكنه يريد عدلاً يتجه نحوه ولا يخرج منه، ووفاءً يصب في إنائه ولا ينقص من إنائه شيء. إنه يزن بميزانين: ميزانٍ شديد الحساسية حين يأخذ، وميزانٍ ثقيل القلب حين يعطي؛ ذاكرته حاضرة في حقوقه، غائبة في واجباته؛ يرى الألم كاملاً حين يقع عليه، ويراه تفصيلاً عابراً حين يصنعه بغيره.

ولو كان المطفف لا يعرف الاستيفاء، لكان جهله موضع تعليم؛ لكنه يستوفي، ولذلك صار انحرافه موضع إدانة. إن القرآن يواجه هنا واحدةً من أقدم حيل النفس: أن تجعل ذاتها مركزاً للحق، فما اقترب منها عظم، وما ابتعد عنها صغر. فإذا ظلمت أقامت خطبةً طويلةً في العدل، وإذا ظلمت بحثت عن الأعذار؛ وإذا جرحها أحد حفظت عبارته وسياقها ونبرتها، وإذا جرحت الآخرين طلبت منهم أن ينسوا ويتجاوزوا؛ وإذا تأخر حقها عدت الدقائق، وإذا كان الحق عليها استكثرت المطالبة به.

وهذه الازدواجية أخطر من خطأ عارض؛ لأنها تعني أن الإنسان لم يتخذ الحق ميزاناً، وإنما اتخذ نفسه ميزاناً. وما دام هو المركز، فلن يكون العدل عنده قيمةً ثابتة، بل أداةً يستعملها متى خدمته ويعطلها متى كلفته. إنه لا يقول في دخيلة نفسه: ليكن العدل؛ بل يقول: ليكن العدل لي. وبين العبارتين مسافةٌ تبدو صغيرة في اللغة، لكنها في الأخلاق مسافةٌ بين العبودية لله والعبودية للهوى.

إن المؤمن الحق لا يُعرف فقط من الطريقة التي يدافع بها عن حقه، بل من الطريقة التي يؤدي بها حق غيره، ولا من شدته حين يُظلم، بل من خوفه أن يظلم، ولا من قدرته على عدّ ما بذله للناس، بل من يقظته تجاه ما بقي لهم عنده. فكل نفس تستطيع أن تشعر بجراحها، ولكن السمو الأخلاقي يبدأ حين تشعر بجراح لم تقع في جسدك، وحين ترى حقاً لا يعود إليك، فتغضب له كما لو كان حقك، وتدفعه إلى صاحبه مع أنك قادرٌ على إنقاذه.

حين يصبح الآخر مجرد وسيلة

تقول الآية: ﴿إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ﴾؛ وفي التعبير إيحاءً بأن المطفف ينظر إلى الناس من جهة ما عندهم، لا من جهة إنسانيتهم. الآخر عنده وعاء منفعة: يطلب منه أكثر ما يستطيع، ثم يرد إليه أقل ما يجب. لا يراه روحاً لها حرمة، ولا قلباً قد يتألم، ولا عائلةً ربما أخذ النقص من قوتها؛ بل يراه طرفاً في معاملة يمكن استغلال ضعفه أو غفلته.

وحين يُمحي الإنسان من وراء الأرقام، يسهل الظلم؛ فالبائع قد يرى الربح ولا يرى الجائع الذي نقص طعامه، وصاحب العمل قد يرى ما وفره من الأجر ولا يرى التعب الذي ابتلعه العامل، والحاكم قد يرى المؤشرات والتقارير ولا يرى الوجوه التي سحقها قراراته، والكاظم قد يرى انتصار فكرته ولا يرى الكرامة التي دهسها في طريق الانتصار. وما جاء الوحي إلا ليعيد الإنسان إلى قلب المعاملة، حتى لا يبقى الحق رقماً بارداً، بل يصبح أمانةً تتصل بعبدٍ من عباد الله.

إن كل تطفيف يتضمن احتقاراً خفياً للمطفّف عليه؛ لأنك لا تنقص حق إنسان إلا بعد أن يصبح حقه في وعيك أقل وزناً من منفعتك. وربما لم تقل بلسانك إنك أفضل منه، لكن يدك قالت ذلك حين استوفت منك وأخسرت له، وكفتك قالت إن راحتك أثقل

من حاجته، وإن ما يعود إليك جديرٌ بالحفظ، أما ما يعود إليه فيمكن أن يتساقط في الطريق.

ولهذا لم يكن العدل في الإسلام نظاماً خارجياً فحسب، بل تربيةً للنظر: أن ترى الآخر كما ترى نفسك في أصل الكرامة، وأن تعلم أن الذي يطالبك بحقه ليس عائقاً أمام رزقك، بل امتحانٌ لأمانتك؛ وأن المال الذي يصل إليك من بوابة الظلم لا يدخل خزانتك وحدها، بل يدخل معها شيءٌ من ظلمة المعصية، فيكثر العدد وتقل البركة، ويتسع الظاهر ويضيق القلب.

التطفيف خارج السوق

إذا كان المكيال والميزان هما الصورة المباشرة التي نزلت الآيات في تقييدها، فإن البنية الأخلاقية التي تكشفها أوسع من حدود التجارة؛ لأنها بنية الاستيفاء عند الأخذ والإخسار عند العطاء. وهذه البنية قد تتسلل إلى كل علاقة، حتى يصبح الإنسان مظففاً في الحب، أو الكلمة، أو الحكم، أو المسؤولية، وإن لم يبع في حياته صاعاً ولم يزن درهماً.

قد يطفف الأبناء حين يطلبون من والديهم فهماً لا ينفد، ثم يجلون عليهما بالصحبة والبر، وقد يطفف الوالدان حين يطلبان من أبنائهما الطاعة، ولا يمنحانهم من العدل والرفق والإصغاء ما يحفظ قلوبهم. ويطفف الزوج حين يريد تقدير تعبته كله، ولا يرى تعب زوجته، وتطفف الزوجة حين تحفظ ما قصر فيه زوجها وتنسى ما بذله. ويطفف الصديق حين يريد حضورك الكامل في أزماته، ثم يغيب حين يأتي دورك في الاحتياج.

ويطفف المسؤول حين يستوفي من موظفيه ساعات العمل والانضباط، ثم يخسهم الأجر والتقدير والحق؛ ويطفف الموظف حين يأخذ راتبه كاملاً، ثم يمنح العمل جزءاً من وقته

وضميره. ويطفف المعلم حين يطالب طلابه بالإتقان ولا يُحسن إعداد درسه، ويطفف الطالب حين يريد أعلى التقديرات بجهدٍ ناقص. ويطفف الخطيب حين يطالب الناس بصدق التوبة، ولا يزن عباراته بميزان الصدق والرحمة؛ ويطفف الناقد حين يفتش في نص خصمه عن أصغر هفوة، ثم يمر على أخطاء من يجب كأنها لم تكن.

وقد يقع التطفيف في كتابة التاريخ؛ فنستوفي فضائل جماعتنا، ونُخسر خصومنا، وننقل ما لنا بأوسع الروايات، وما علينا بأضيق العبارات. ونقع فيه حين نحاكم أشخاصاً نكرههم بنياتهم المحتملة، ثم نحاكم أحبابنا بأعمالهم الظاهرة؛ نلتمس لهؤلاء الأعداء، ونغلقها في وجوه أولئك. وحينها لا يكون الميزان في أيدينا، بل تكون أهواؤنا هي التي تمسك به، فترفع كفة وتخفض أخرى قبل أن توضع الأعمال فيه.

وأشد التطفيف خفاءً أن يطفف الإنسان في نظره إلى نفسه؛ فيستوفي ذكر حسناته، ويُخسر من حسابه سيئاته، يروي لنفسه ما صنعه من خير حتى يراه كثيراً، ثم يختصر ظلمه للناس حتى يراه هيناً. وإذا اعتذر لنفسه، ذكر الظروف كلها؛ وإذا حكم على غيره، حذف الظروف كلها. وبذلك يبني صورةً زائفةً عن ذاته، لا لأنه لا يعرف الحقيقة، بل لأنه يكيل لها بمكيال الرحمة، ويكيل للآخرين بمكيال الإدانة.

الأمانة في الأشياء الصغيرة

إن السورة، باختيارها التطفيف، ترينا على أن الطريق إلى الصلاح الكبير يبدأ من الوفاء في التفاصيل. فالأمم لا تنهار فقط حين تسقط قوانينها الكبرى، بل حين يصبح النقص الصغير سلوكاً عاماً: موظفٌ يسرق من الوقت دقائق يراها تافهة، وصانعٌ يحذف من الجودة شيئاً لا

يظهر سريعاً، وكتبَ ينسب إلى نفسه فكرةً ليست له، وشاهدٌ يحذف من الحقيقة كلمةً تقلب معناها، وناقلٌ يقتطع العبارة من سياقها ليصنع بها اتهاماً.

كل واحدٍ من هؤلاء قد يقول: لم آخذ إلا قليلاً، لم أغير إلا كلمة، لم أتأخر إلا دقائق، لم أكم إلا تفصيلاً. لكن المجتمع لا يفقد عدالته دفعةً واحدة؛ إنه يفقدها بهذه الأجزاء الصغيرة حين تتجمع، كما يفقد الإناء ماءً من ثقبٍ دقيقة لا يلتفت إليها صاحبه حتى يجده فارغاً. وما الفساد الواسع إلا تطفيفٌ صغير وجد من يبرره، ثم وجد من يقلده، ثم وجد نظاماً يحميه.

إن الأمانة ليست أن تعيد الوديعة الكبيرة فحسب، بل أن ترفض أصغر زيادةٍ ليست لك؛ لأن القضية ليست مقدار المال، وإنما مقدار حضور الله في قلبك. وقد يكون امتناعك عن القليل أعظم دلالةً على صدقك من امتناعك عن الكثير؛ فالكثير تحرسه القوانين والأنظار، أما القليل فقد لا يحرسه إلا ضميرك.

ولذلك فإن العبد الذي يراقب الله لا يسأل فقط: هل سيكتشف الناس ما فعلت؟ بل يسأل: ماذا يفعل هذا الفعل بقلبي؟ إنه يخشى أن يرح شئناً في يده ويخسر شيئاً من نور بصيرته، وأن يزيد رقماً في ماله ويُقص مقاماً من مقاماته عند الله. فليست كل زيادةٍ ربحاً، كما ليست كل خسارةٍ نقصاً؛ ربما حفظ المرء أمانته ففاته مال، لكنه نجا بقلبه، وربما استوفى المال بالخدعة، فدخل عليه كاملاً ودخل هو على نفسه ناقصاً.

امتحان الإنصاف

هذه الآيات مرآة لا ينبغي أن نوجهها إلى التجار وحدهم؛ فما أسهل أن يقرأ الإنسان قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ ثم يبحث بعينه عن شخصٍ آخر تنطبق عليه، وكأن القرآن جاء

ليمنحه لأتحة اتهام ضد الناس، لا ميزاناً يزن به نفسه. والتدبير الصادق يبدأ حين نمنع النفس من الهرب إلى الخارج، ونسألها: أين أستوفي وأخسر؟ في أي علاقة أطلب بأكثر مما أؤدي؟ من الإنسان الذي أحفظ تقصيره وأنسى تقصيري نحوه؟ وأي حقٍ صغير أقنعت نفسي أنه لا يستحق الرد؟

ليس المقصود أن يتحول الإنسان إلى جلاّد لذاته، بل أن يستعيد ميزانه قبل أن يلقاه مختلاً في كتابه. فباب الإصلاح مفتوح ما دام القلب قادراً على الاعتراف، وما دام الحق يمكن أن يعود إلى صاحبه، وما دام العبد يستطيع أن يقول لهواه: كما تحب أن تستوفي، فتعلم أن توفي؛ وكما يؤلمك النقص، فلا تجعله نصيب غيرك منك.

إن العدل يبدأ من قدرة الإنسان على الخروج من مركز ذاته، وأن يتخيل نفسه في الكفة الأخرى: لو كنت المشتري، أترضى هذا الوزن؟ لو كنت العامل، أترضى هذا الأجر؟ لو كنت المتهم، أترضى هذا الحكم؟ لو كنت صاحب الكلمة المقتطعة، أترضى هذا النقل؟ تلك قاعدةٌ تعيد للضمير توازنه؛ لأن الهوى يضع الإنسان دائماً في الجهة التي تستفيد، أما الإيمان فينقله لحظةً إلى الجهة التي ستدفع الثمن.

وهكذا تضعنا الآيات الثلاث الأولى أمام تعريفٍ قرآني صارم للأخلاق: ليست الأخلاق ما تطلبه من الآخرين، بل ما تلتزم به حين يكون الحق لهم؛ وليست العدالة أن تعرف مقدار ما تستحق، بل أن تعرف مقدار ما يجب عليك؛ وليست الأمانة أن توفي حين تعجز عن الخيانة، بل أن توفي حين تكون قادراً عليها ولا يمنعك إلا علمك بأن الله يرى.

فالمطفف في نهاية الأمر لم يخسر الآخرين وحدهم، بل بدأ بخسارته الكبرى منذ اللحظة التي رضي فيها أن يكون له ميزانان. لقد أخذ شيئاً يسيراً من كفة غيره، لكنه ألقى بشيءٍ من

إنسانيته في الكفة المقابلة؛ وربما عاد إلى بيته وقد زاد ماله، غير أنه عاد أنقص قلباً. وما أشدها من خسارة: أن يستوفي الإنسان دنياه من الناس، ثم يصل إلى الله وقد أخسر نفسه.

الفصل الثاني

أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ: القيامة بوصفها ميزاناً للأخلاق

قال الله تعالى:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

بعد أن كشفت السورة صورة المطففين وهم يستوفون لأنفسهم ويخسرون غيرهم، لم تنشغل بتفصيل أساليب الغش، ولم تضع قائمةً إجرائيةً لضبط الأسواق، بل انتقلت مباشرةً إلى الجذر الذي ينبت منه التطفيف: اضطراب الصلة بالآخرة. فالسؤال القرآني لا يقول: ألا يخاف هؤلاء انكشاف أمرهم؟ ولا: ألا يظنون أن الناس سيحاسبونهم؟ وإنما يرتفع بهم من رقابة السوق إلى رقابة القيامة: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾.

إن فساد الميزان في اليد يبدأ غالباً من غياب الميزان عن القلب؛ فإذا غاب مشهد البعث، أو صار فكرةً باهتةً لا تحرك الإرادة، توهم الإنسان أن اللحظة الحاضرة هي الحكمة الوحيدة، وأن النجاة من أعين الخلق نجاةً كاملة، وأن الحق الذي لا يملك صاحبه إثباته قد انتهى وجوده. أما حين يستقر اليقين بالآخرة في الضمير، فإن كل فعلٍ صغير يكتسب امتداداً أبدياً، ولا يعود المكيال وعاءً محدوداً في سوقٍ عابر، بل يصبح شاهداً ينتظر يوم النطق.

السؤال الذي يوقظ الفطرة

جاء التعبير بقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾، ولم يقل: ألا يوقن؛ لأن مجرد الظن بالبعث كان ينبغي أن يردعهم، فكيف لو بلغ الأمر مرتبة اليقين؟ لو أن الإنسان ظن فقط أنه سيقف يوماً

للمساءلة، وأن كل ذرة أخذها بغير حق ستعود إليه سؤالاً، لكان حراً به أن يحتاط لنفسه وألا يغامر بمصيره من أجل مكسب زائل. فكيف بمن يسمع خبر الله، ويرى آيات القدرة، ويعرف أن الذي أنشأه أول مرة قادرٌ على إعادته، ثم يتصرف كما لو أن الأرض ستبتلعه ويمحي أثره إلى الأبد؟

في السؤال تعجبٌ من حال هؤلاء، وكأن التطفيف لا يكشف فقط نقصاً في المروءة، بل يكشف خللاً في التفكير نفسه. أي عقلٍ يستبدل سلامة المصير بزيادةٍ طفيفة في الكيل؟ وأي صفةٍ تلك التي يرمح فيها المرء حفنةً من الدنيا ويشترى بها موقفاً بين يدي الله؟ إنه لا يحتاج كي يردع نفسه إلى معرفة كل تفاصيل القيامة؛ يكفيه أن يظن أنه سيُبعث، وأن ما يفعله الآن قد لا ينتهي بانتهاء المعاملة.

لكن الإنسان حين يستسلم للشهوة لا يفقد أخلاقه وحدها، بل يضيق أفقه العقلي؛ فلا يعود يرى إلا الربح القريب، وتغيب عنه العاقبة البعيدة. إن المعصية كثيراً ما تكون انتصاراً للحاضر على المستقبل، وللمحسوس على الموعود، وللحظة الخاطفة على العمر الأبدي. والمطفف يعرف أن ما يأخذه قليل، لكنه يراه الآن أمام عينه، أما الحساب فوَجَل؛ فيمنح العاجل قوة الحقيقة، ويعامل الآجل كأنه احتمالٌ لا يستحق أن يغير قراره.

ومن هنا كانت التربية القرآنية تكرر نقل القلب من الآن إلى المآل، ومن ظاهر الفعل إلى نهايته؛ لأن الإنسان لا يستقيم بمجرد معرفة الحكم، بل باستحضار المصير. قد يعرف أن الظلم حرام، لكن هذه المعرفة تظل ساكنةً حتى يرى نفسه واقفاً أمام المظلوم في يومٍ لا يملك فيه مალًا يرده ولا قوةً يدفع بها عنه، وإنما تُؤخذ الحسنات وتوضع في موازين من ظلمهم. هناك يفهم، بعد فوات زمن التدارك، أن ما حسبه مكسباً لم يكن إلا ديناً مؤجل السداد.

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ: حين تسترد الأشياء أجمامها الحقيقية

لم تقل الآية: ليومٍ طويل، أو ليومٍ شديد فحسب، بل قالت: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. والعظمة هنا تحيط باليوم من كل جهة: عظمة ما يقع فيه، وعظمة من يُحَاكَم، وعظمة الحقائق التي تنكشف، وعظمة المصائر التي تتحدد فلا تتغير بعدها أبداً. إنه يومٌ لا يمكن اختزاله في خوفٍ عابر، لأن نتائج أيام الدنيا كلها تتجمع فيه، وكل ما ظنه الإنسان منسياً يعود حاضراً، وكل ما استصغره يسترد حجمه في ميزان الله.

نحن نعيش في الدنيا تحت سلطان المظاهر؛ فقد يبدو الظالم عظيماً لأنه يملك، والمظلوم صغيراً لأنه لا يستطيع، وقد يمر الجرم دون عقوبة فيظن الناس أن صفحته طويت. لكن يوم القيامة لا يقبل الأجمام التي منحتها الدنيا للأشخاص والأفعال؛ بل يعيد كل شيء إلى قدره الحقيقي. تسقط ألقاب القوة، وتبث زخارف المكانة، ولا يبقى من الإنسان إلا حقيقته وعمله، فيظهر أن كلمةً قيلت لإذلال ضعيف كانت أثقل مما حسبها قائلها، وأن حقاً صغيراً حبس عن صاحبه كان في ميزان العدل أمراً عظيماً.

وعظمة اليوم مستمدة قبل كل شيء من الوقوف لرب العالمين؛ فالإنسان لا يقف أمام قاضٍ قد تخفى عليه الحجة، ولا أمام سلطة يمكن تضليلها، بل أمام الله الذي علم الفعل قبل وقوعه، وعلم النية التي حرّكتها، والحيلة التي أخفتها، والألم الذي تركه في قلب المظلوم. لا تحتاج الحقيقة هناك إلى شاهدٍ خارجي، ولا تستطيع البلاغة أن تصنع براءةً زائفة؛ لأن الأعضاء ذاتها تشهد، والصحائف تُنشر، والسرائر تُبلى، ويصير ما كان باطناً مكشوفاً كأنه عاش عمره كله في الضوء.

وما أضعف الإنسان حين يقايض ذلك اليوم بهذه الدنيا! إنه يهب الأبدى من أجل العابر، ويعرض الحقيقة للخطر من أجل صورة، ويستبدل نظر الله إليه برضا شهوة لا تلبث أن تنطفئ. يأخذ من حق الناس ما قد يستمتع به ساعة، ثم يحمل تبعته إلى يومٍ عظيم. وهذه هي الحماقة التي يفصحها السؤال: كيف لمقدارٍ قليلٍ يُنقص من الميزان أن يكون جديراً بأن يثقل على صاحبه في ذلك اليوم؟

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ: البشرية وقد سقطت امتيازاتها

ثم ترسم السورة المشهد كله في كلماتٍ قليلة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. يقوم الناس، لا بعضهم دون بعض، ولا الضعفاء وحدهم، ولا أولئك الذين عجزوا عن حماية حقوقهم في الدنيا، بل الناس جميعاً: البائع والمشتري، والحاكم والمحكوم، والغني والفقير، ومن كان يملك الميزان ومن كان لا يملك إلا الثقة.

هذا القيام يسوي ما صنعه الدنيا من تفاوتٍ زائف؛ فلا مقاعد خاصة تمنح أصحاب النفوذ طريقاً مختصراً، ولا أنساب تحجب الحساب، ولا أموال تشتري الخارج. كل امرئ قائمٌ بعمله، مفتقرٌ إلى رحمة ربه، وقد ترك وراءه كل الأدوات التي كان يستطيل بها على غيره. والذي كان يأمر الناس فيطاع، يقف الآن لا يملك أن يتقدم إلا بإذن؛ والذي كان يختبئ خلف حراسه، يقف أعزل من كل قوة؛ والذي كان يشتري صمت الشهود، يواجه كتاباً لا يُشترى.

وفي لفظ ﴿يَقُومُ﴾ ما استدعي الهيبة والانتظار والانقطاع. إنه قيامٌ لا يشبه قيام الإنسان لحاجةٍ من حوائج الدنيا؛ بل قيام الخلق وقد انقطعت عنهم أسبابهم، وظهرت عبوديتهم الكاملة. كانوا في الدنيا يتحركون تحت وهم الاستقلال، يقول أحدهم: مالي، وسلطاني،

وقراري، وربحي؛ فإذا جاء ذلك اليوم قام الجميع لرب العالمين، وانكشف أن الملك كان لله منذ البداية، وأن الإنسان لم يكن مالكا مطلقاً حتى لما في يده، بل مؤتمناً عليه وممتحناً فيه.

ولأنهم يقومون لرب العالمين، فإن الحقوق التي كانت بين العباد لم تكن يوماً خارجة عن سلطان الرب. ربُّ البائع هو ربُّ المشتري، وربُّ القوي هو ربُّ الضعيف، وربُّ من أخذ هو ربُّ من أخذ منه. وحين يظلم الإنسان عبداً، فإنه لا يتعامل مع كائنٍ مهملي في الوجود، بل مع عبدٍ له ربٌّ لا ينساه، يسمع شكواه وإن لم يتكلم، ويرى دمه وإن أخفاه، ويحفظ حقه وإن عجزت محاكم الأرض عن الوصول إليه.

الربوبية التي تحمي حقوق الضعفاء

إن وصف الله هنا بأنه رب العالمين يحمل إلى القلب معنى يتجاوز الرهبة إلى الطمأنينة. فخالق لا يقومون أمام قوةٍ عمياء، بل أمام ربهم؛ والربوبية تتضمن الخلق والملك والتدبير والعلم والحكمة والرحمة والعدل. إنه سبحانه رب المظلوم حين انقطعت به الوسائل، ورب الضعيف حين لم يجد من يسمع صوته، ورب الإنسان الذي خُدع لأنه أحسن الظن، فلم تكن ثقته سذاجةً ضائعة عند الله، ولا خسارته رقماً ذاب في حسابات السوق.

ما أكثر الحقوق التي مات أصحابها قبل أن يستردوها، وما أكثر المظالم التي دفتها القوة أو السياسة أو الخوف، وما أكثر القلوب التي خرجت من الدنيا ولم تسمع كلمة اعتذار! لو كانت الدنيا هي الصفحة الأخيرة، لكان الوجود مثقلاً بأسئلة العدالة التي لا جواب لها. لكن القيامة هي تمام الجواب؛ فهي ليست ملحقاً بعقيدة التوحيد، بل ضرورة تكتمل بها دلالة العدل، ويعلم بها المظلوم أن حقه لم يضيع، ويعلم بها الظالم أن تأخير الحساب لم يكن إهمالاً.

وقد يرى المطفف أنه إنما تعامل مع إنسانٍ لا يملك إثبات النقص، لكن الآية تنقله إلى الحقيقة الأوسع: ذلك الإنسان الذي طففت عليه له رب، وأنت ستقوم معه أمام ذلك الرب. ليست المسافة بين الجريمة والحساب هي المسافة بين السوق والمحكمة، بل بين السوق والقيامة. وقد ينجو المطفف من الأولى، لكنه لا يستطيع أن يغيب عن الثانية.

إن هذه الحقيقة تمنح الأخلاق أساساً لا يتبدل بتبدل القوة. فمن كان مصدر عدله خوفه من الناس، عدل حين راقبوه وظلم حين غابوا؛ ومن كان مصدر عدله يقينه برب العالمين، استقام في العلانية والسر، لأن عين الرقيب لا تغيب. والأنظمة تستطيع أن تضبط الأيدي بقدر ما ترى، أما الإيمان فينشئ في القلب محكةً تصاحب الإنسان حيث لا كاميرا ولا شاهد ولا سجل بشري.

القيامة ليست فكرةً مؤجلة

من أخطر ما يصيب التدين أن تتحول القيامة إلى خبرٍ صحيح في الذهن، لكنه غائب عن القرار. يقر الإنسان بالبعث إذا سُئل، ثم يبيع ويشترى ويحكم ويخاصم كما لو أنه لن يُبعث. وهنا تكشف السورة أن القضية ليست مجرد التصديق اللساني، بل مقدار حضور اليوم الآخر في حركة السلوك. فالإيمان الذي لا يغيّر وزن المكيال ما زال بعيداً عن وظيفته، واليقين الذي لا يمنع صاحبه من بخس الناس لم يصل بعد إلى موضع الإرادة.

ليس المطلوب أن يعيش الإنسان مرعوباً يائساً، بل أن يعيش مسؤولاً، يرى كل لحظةٍ بذرةً لآخرة، وكل معاملةٍ سطراً في صحيفة، وكل اختيارٍ خطوةً إلى مقام. فالقيامة لا تبدأ آثارها بعد الموت فقط؛ إنها تبدأ الآن حين تمنعك من ظلمٍ كنت قادراً عليه، وحين تدفعك إلى

رد حق لا يعلم به إلا الله، وحين تجعلك تختار الصدق مع أن الكذب أنفع لك في الحساب العاجل.

وحين يستحضر العبد قيامه لرب العالمين، يتغير معنى الأشياء في عينه: يصبح رد المال إلى صاحبه نجاة لا خسارة، والاعتذار قوة لا مذلة، والاعتراف بالخطأ تطهيراً لا هزيمة، والتنازل عن المكسب المحرم ربحاً بعيد المدى. إنه لا يعود يحسب بعين اللحظة وحدها، بل يضم إلى حسابه يوماً عظيماً، فتبدل نتائج المعادلة: ما كان في أعين الناس فواتاً يصبح فوزاً، وما كان في دفاتر التجارة زيادةً قد يظهر في كتاب الآخرة إفلاساً.

من انحاء الميزان إلى قيام الناس

ثمة مقابلةٌ بديعةٌ بين أول السورة وهذا المشهد؛ فهناك يدٌ تخفض الميزان خفيةً، وهنا بشرةٌ كاملةٌ تقوم علانيةً. هناك إنسانٌ يحاول أن يميل بالكفة لمصلحته، وهنا يومٌ لا يستطيع فيه أن يميل بشيء. هناك يحسب أن زمام الأمر في يده، وهنا يقف وقد خرج الأمر كله من يده. وكأن السورة تقول: تستطيع الآن أن تُنقص الميزان، لكنك لا تستطيع أن تُنقص الحساب؛ وتستطيع أن تتلاعب بالمقدار، لكنك لن تتلاعب بالمصير.

الذي لا يقوم للحق في الدنيا، سيقوم للحساب في الآخرة. والذي لم يقف عند حدود الله مختاراً، سيقف بين يديه مضطراً. والذي انحنى على الميزان ليأخذ ما ليس له، سيعتدل قائماً في يومٍ لا تنفعه فيه حيلة. وما بين الانحاء والقيام تُكتب قصة الإنسان: إما أن يقيم العدل الآن فيخفّ عليه القيام هناك، وإما أن يستثقل الأمانة هنا فيثقل عليه الموقف غداً.

وليس علاج التطفيف أن تستقيم أدوات القياس وحدها، بل أن يستقيم تصور الإنسان عن نفسه: إنه عبدٌ سيُبعث، لا مالكٌ مطلق يفعل ما يشاء، ومؤتمنٌ سيُسأل، لا عابرٌ ينتهي كل

شيء بموته. فإذا دخلت هذه الحقيقة قلبه، صار الميزان الخارجي تابعاً لميزانٍ أعمق، وأصبحت الأمانة تعبيراً عن عقيدة، والعدل عبادةً لله قبل أن يكون نظاماً لحفظ المجتمع.

وهكذا تعيد هذه الآيات الثلاث بناء الضمير من خلال مشهد القيامة: بعثُ يردُّ الإنسان بعدما ظن أنه انتهى، ويومٌ عظيم يعيد للأعمال أبحامها الحقيقية، وقيامٌ لرب العالمين يسقط كل امتيازٍ زائف. وبين هذه المعاني يتكوّن الإنسان الأمين؛ لا لأنه عاجز عن التطفيف، بل لأنه يرى وراء الكفة يوماً، ووراء المظلوم رباً، ووراء المكسب صحيفةً، ووراء الحياة قياماً لا مفر منه.

فيا من يستوفي حقه كاملاً، ثم يتباطأ عن حقوق الآخرين: تذكر أن العدل الذي تطلبه لنفسك هو العدل ذاته الذي سيطلب منك، وأنتك إذا استطعت اليوم أن تختار موضعك من الميزان، فلن تختار غداً موضعك من الحساب. وستقوم كما يقوم الناس جميعاً، لا بما جمعت، ولا بما ادعيت، بل بما وفيت وبما نقصت؛ أمام رب العالمين الذي لا تضيع عنده حبة، ولا تسقط من علمه خيانة، ولا يختل في حكمه ميزان.

كِتَابُ الْفُجَارِ لَفِي سَجِينٍ: حين تتحول الأعمال إلى مصير

قال الله تعالى:

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِينٍ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴿٢﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٣﴾﴾

بعد أن رفعت السورة أبصار المطففين إلى يوم البعث، وأرثهم البشرية قائمةً لرب العالمين، تنتقل إلى ما وراء ذلك القيام: إلى الكتاب الذي حفظ ما ظنه صاحبه منسياً، وإلى المصير الذي انتهى إليه من عاش يعبث بالموازين كأن أفعاله تبخر بمجرد انقضاء لحظتها. وهنا تجيء ﴿كَلَّا﴾ حاسمةً، تقطع على النفس أوهامها، وتردعها عن اعتقادها الخفي أن ما تفعله يمكن أن يضيع في زحام الأيام، أو أن مرور الزمن يملك أن يحو حقيقة الذنب.

﴿كَلَّا﴾: ليست الحياة فوضى بلا ذاكرة، وليست الأعمال أمواجاً تنكسر ثم تتلاشى، وليست الخيانة التي اختبأت عن العيون قد خرجت من علم الله. كلا؛ إن لها كتاباً، وإن للكتاب موضعاً، وإن ما ظننته لحظةً عابرة قد اتخذ طريقه إلى مصيرٍ ثابت. وفي هذا الانتقال من فعل التطفيف إلى كتاب الفجار تنكشف حقيقة خطيرة: أن المعصية لا تبقى حركةً خارج الإنسان، بل تشارك في كتابة هويته، حتى يتحول الفعل المتكرر إلى صفة، والصفة المستقرة إلى طريق، والطريق الذي طال السير فيه إلى مصير.

من المطففين إلى الفجار

بدأت السورة بوصفٍ مخصوص: ﴿الْمُطَفِّفِينَ﴾، ثم انتقلت إلى وصفٍ أوسع وأشد: ﴿الْفَجَّارِ﴾. وكأنّ التطفيف الذي بدا نقصاً قليلاً في الميكال قد كشف عن فجورٍ أعمق في النفس؛ لأنّ الذي يقتحم حدود الحق من أجل منفعةٍ يسيرة قد بدأ يشق في داخله طريقاً للخروج عن طاعة الله. والفجور في أصل دلالاته يحمل معنى الانشقاق والانفجار والتجاوز؛ كالماء يشق الساتر ويندفع من موضعه، وكلنفس تشق حواجز التقوى فتخرج إلى فضاء الشهوة بلا ضابط.

ليس كل من وقع في خطيئةٍ عارضة، ثم ندم وتاب، قد استقر في وصف الفجار؛ فالإنسان ضعيف، وباب الرجوع مفتوح، ورحمة الله أوسع من ذنوب التائبين. لكن الخطر يبدأ حين لا يعود الذنب حادثةً تؤلم القلب، بل يصبح منهجاً يدافع عنه صاحبه، وحين ينتقل الإنسان من فعل المعصية إلى تبريرها، ومن الشعور بانحلال منها إلى الشعور بالمهارة في إخفائها. هناك لا يعود التطفيف نقصاً في المقدار وحده؛ بل يصير فجوراً يشق حرمة الأمر الإلهي، ويفصل المصلحة عن الأخلاق، ويجعل الإنسان مستعداً لأن يخسر آخرته من أجل زيادةٍ صغيرة في دنياه.

إن الخطايا الكبيرة لا تولد دائماً كبيرة؛ فقد تبدأ بتنازلٍ داخلي لا يراه أحد، ثم يتبعه تنازلٌ آخر، حتى تتسع الفجوة بين المرء وضميره. في المرة الأولى ترتجف يده، وفي الثانية يخف الارتجاف، وفي الثالثة يصبح الفعل مألوفاً، ثم يأتي يومٌ لا يكفي فيه بارتكاب الخطأ، بل يسخر ممن يتورعون عنه. وهكذا يتحول المطفف إلى فاجر: ليس لأن المقدار الذي سرقه تضاعف فحسب، بل لأن الحاجز الذي كان يمنعه من الظلم انهار.

والقرآن، وهو ينقلنا من الاسم الأول إلى الثاني، يعلّنا ألا نخدع بصغر بدايات الشر؛ فالجبة المنقوصة قد تكون بذرةً لفجورٍ كامل إذا لم يلحقها ندمٌ وتوبةٌ وردٌ للحق. وليس الخوف من الذنب محصوراً في عقوبته، بل في قدرته على إعادة تشكيل صاحبه؛ إذ قد يبدأ الإنسان مستخدماً للمعصية من أجل مصلحة، ثم تنتهي المعصية مستخدمةً له، تقوده حيث تشاء، وتحدد طريقته في النظر والاختيار.

إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ: الوجود الذي لا ينسى

تضعنا الآية أمام الكتاب. وما أهيب هذا المعنى حين نتذكر كم تعتمد حياتنا على النسيان! نفعل، ثم تمضي الأيام، فتبهت التفاصيل، وتغير الأماكن، ويموت بعض الشهود، ونحسب أن الحادثة فقدت وجودها لأنها فقدت حضورها في الذاكرة. لكن الوحي يخبرنا أن العمل يخرج من زمنه إلى كتابه؛ وأن ما غاب عن الوعي لم يغيب عن العلم، وما ضاع من ذاكرة صاحبه لم يضع من سجل الحساب.

قد ينسى المطفف عدد المرات التي أنقص فيها، وينسى الوجوه التي خرجت من متجره وقد حملت أقل مما دفعت، وقد يختلط عليه ما كان حلالاً بما كان حراماً حتى يشعر أن ماله كله بريء لمجرد أنه لم يعد يميز مصادره. غير أن الكتاب لا تختلط عليه المقادير، ولا تأكله الأيام، ولا يضع منه حق لأنه كان صغيراً. إنه لا يحفظ صورة الفعل وحدها، بل يحفظ حقيقته: مقدار النقص، وقصد صاحبه، وعلمه، وحيلته، والضرر الذي وقع، وما إذا كان قد تاب ورد الحقوق أو مضى مستخفّاً بها.

والكتاب هنا يحرم الإنسان من وهمٍ شديد الرسوخ: أن الحقيقة هي فقط ما يمكن للناس إثباته. ففي محاكم الدنيا قد يسقط الحق بفقد الوثيقة، وقد ينجو المعتدي لضعف الدليل، وقد

تموت القضية بالتقادم، أما في الحساب الإلهي فلا يحتاج علم الله إلى وثائق البشر. إن الكتاب ليس مصدرًا لعلمه سبحانه، فهو العليم الذي لا يخفى عليه شيء، وإنما هو مظهرٌ لكمال الحجة والعدل؛ يلقي العبد عمله مثبتًا، فلا يُظلم ولا يملك أن يدفع الحقيقة بالإنكار.

وفي هذا المعنى حمايةٌ عظيمة للمظلومين؛ فكم من إنسانٍ سلب حقه ولم يجد بينة، وكم من كلمةٍ قيلت في غيابه فلم يستطع الدفاع عن نفسه، وكم من جهدٍ نُسب إلى غير صاحبه، وكم من بريء حمل في أعين الناس ذنبًا صنعه سواه! كل ذلك ليس مهملاً في فراغ الكون؛ لقد كُتب، والكتاب لا يحفظ جريمة الظالم وحدها، بل يحفظ براءة المظلوم وصبره ووجهه أيضًا.

سجين: ضيق المصير بعد اتساع الوهم

تقول الآية: ﴿لَقِيَ سَجِينَ﴾. وقد تكلم المفسرون في مدلول سجين، ويدور المعنى على سجن الفجار وموضع سافلٍ ضيقٍ محبوس، بما يليق بمصيرهم، مع الوقوف عند حدود ما دل عليه النص وعدم التكلف في تفاصيل الغيب. غير أن جرس الكلمة نفسها يحمل ثقل السجن والانغلاق والانحدار، فكأن الفجار الذين أرادوا في الدنيا أن يطلقوا شهواتهم بلا حدود، انتهوا إلى أضيق المصائر، والذين رفضوا أن يحبسوا أيديهم عن الحرام وجدوا أعمالهم في سجين.

إنها مفارقةٌ عميقة: ظن الفاجر أن الطاعة قيد، وأن الأمانة تحرمه من فرص الربح، وأن حدود الله تضيق عليه مجال الحركة؛ فتمرد كي يكون حرًا، لكنه لم يفهم أن الحرية التي تنفصل عن الحق تتحول بالتدريج إلى سجن. يبدأ الإنسان بإطلاق شهوته، ثم لا يلبث أن يصبح أسيرها؛ يظن أنه يملك المال، ثم يملكه المال؛ يظن أنه يستخدم الخديعة، ثم تصبح

الخدعة طريقته الوحيدة في الحياة؛ يظن أنه كسر القيود، فإذا به قد صنع من عاداته قسباناً تحيط بقلبه.

فالطاعة، في حقيقتها، لا تسجن الإنسان بل تحرره من عبودية الهوى. حين يتمتع التاجر عن الغش مع قدرته عليه، لا يكون قد خسر حريته، بل أثبت أنه أوسع من إغراء الربح، وأن إرادته ليست سلعةً تشتريها زيادةً في المال. أما المطفف الذي لا يستطيع أن يرى فرصةً محرمة دون أن ينقض عليها، فهو المحبوس حقاً، وإن تحرك في الأسواق بلا قيدٍ ظاهر.

وقد اختار الفاجر السجن منذ الدنيا حين حبس نفسه داخل ذاته؛ فلا يرى إلا مصلحته، ولا يشعر إلا بحاجته، ولا يعترف إلا بحقه. إن الأنانية سجنٌ ضيقٌ مهما اتسعت ممتلكات صاحبها؛ لأنها تحجب عنه العالم الرحب الذي يبدأ حين يشارك الآخرين إنسانيتهم، ويحفظ حقوقهم، ويتسع قلبه لما وراء نفسه. فمن عاش في سجن الأناء، لم يكن عجباً أن ينتهي كتابه إلى سجين.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ: هُوَ يُتَجَاوَزُ الْمَعْرِفَةَ الْمَأْلُوفَةَ

تجيء العبارة: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ﴾ لتفتح في القلب مساحةً من الرهبة لا تملؤها التفاصيل. فالخطاب يلفت إلى أن سجيناً أعظم هولاً من أن تحيط به تصورات الإنسان المحدودة. نحن نقيس الألم بما عرفناه في الدنيا، ونقيس السجن بمجدرانٍ وأبواب، ونقيس الخوف بما مر بنا من تجارب؛ لكن حقائق الآخرة ليست نسخةً موسعةً من أحوال الدنيا، بل عالمٌ لا تدرك طبيعته الكاملة مقاييسنا المحدودة.

وفي ترك بعض حقائق الغيب بلا تفصيل رحمةً تربويةً وحكمةً بيانية؛ لأن الغموض المهيّب قد يكون أوقع في النفس من وصفٍ تحاول الخيلة أن تحده. يكفي أن يقول الله: ﴿وَمَا

أَدْرَاكَ مَا سَيِّئٌ ﴿﴾ حتى يفهم القلب أن وراء الكلمة من الهول ما لا يملك أن يستصغره، وأن الفعل الصغير الذي كان صاحبه يمر عليه ضاحكاً قد انتهى إلى حقيقةٍ ترتجف اللغة قبل وصفها.

إن الإنسان يستهين بالذنب لأنه يرى بدايته ولا يرى نهايته. يرى اللحظة التي أخذ فيها زيادة، ولا يرى سجيناً؛ يسمع رنين المال، ولا يسمع صرير الأبواب التي يصنعها لنفسه؛ يشعر بلذة الغلبة، ولا يشعر بثقل الكآب. ولو كُشف له المآل عند أول خطوة، لربما سقطت الخديعة من يده قبل أن تتم. ولهذا يكشف القرآن طرفاً من النهاية، حتى يضيء به موضع البداية، ويجعل الغيب حاضراً في القرار الذي يحدث الآن.

كُتِبَ مَرْقُومٌ: لا غموض في سجل الحقيقة

ثم يأتي البيان: ﴿كُتِبَ مَرْقُومٌ﴾. كُتِبَ مَثَبٌ مكتوبٌ بين، لا تذروه الرياح ولا تعث بمضمونه الأهواء. والرقم يدل على الإثبات والتعین والتمييز؛ فلا يقع خلطٌ بين عملٍ وعمل، ولا يحمل إنسانٌ ذنب غيره، ولا تُنسب إلى أحدٍ خيانةٌ لم يفعلها. كل شيءٍ مضبوطٌ بميزان الحق الذي لم يضبطه المطففون في دنياهم.

لقد لعبوا بالأرقام في الأرض، فجاءهم كُتِبَ مَرْقُومٌ. أنقصوا المقادير، فإذا المقادير كلها مثبتة. حاولوا إخفاء الفرق بين ما أخذوا وما أعطوا، فإذا الفرق محفوظ لا تسقط منه ذرة. وما أبلغ هذه المقابلة: ميزانهم مضطرب، وكُتِبَ الله مضبوطٌ؛ حساباتهم خادعة، وحسابه دقيق؛ ذاكرتهم تنتقي ما يخدمها، والكُتِبَ يحصي الحقيقة كلها.

وقد يظن الإنسان أن التوثيق الإلهي لا يعنيه إلا إذا كان من أصحاب الكجائر الظاهرة، لكن قوله: ﴿مَرْقُومٌ﴾ يوقظ القلب إلى دقة المسؤولية. فليست الأعمال العظيمة وحدها هي التي

تكتب، بل حتى المقادير التي لا يبالي بها الناس. إن رب العالمين الذي حذر من التطفيف لا يسمح أن يكون سجل الحساب نفسه موضع تطفيف؛ فلا تُنقص حسنة، ولا تُزاد سيئة، ولا يضيع عذرٌ صادق، ولا تُهمل توبة، ولا يُنسى حق.

وهذا المعنى لا ينبغي أن يقود المؤمن إلى اليأس أو الوسواس؛ لأن الذي يكتب الذنب يكتب الندم أيضاً، والذي يحصي الخطيئة يعلم صدق التوبة، والذي لا يضيع حقوق العباد لا يضيع دعة عبدٍ عاد إليه. الكتاب المرقوم ليس كتاب ظلمٍ يتصيد العثرات، بل سجل عدلٍ كامل تحت سلطان رحمة الله وحكمته. والخطر ليس في أن يضعف الإنسان ثم يتوب، وإنما في أن يفجر ثم يأمن، ويظلم ثم يستكبر، ويرى الكتاب خرافةً لا تستحق أن تغير طريقه.

نحن نكتب أنفسنا بما نكسب

في كل يومٍ يضيف الإنسان أسطراً إلى كتابه، لكنه في الوقت نفسه يضيف ملامح إلى نفسه. الأعمال ليست أشياء تركها خلفنا فقط؛ إنها تدخل فينا، تثير أو تظلم، توسع القلب أو تضيق به، وترفع الإنسان أو تهبط به. إننا لا نفعل الأفعال ثم نبقى كما كنا؛ فكل صدقٍ يجعل الصدق التالي أيسر، وكل خيانةٍ تهين النفس لخيانةٍ أخرى، حتى يصبح كتاب الإنسان صورةً صادقةً لما صنعه الإنسان بنفسه.

ولهذا جاء التعبير بالإضافة: ﴿كِتَابُ الْفَجَارِ﴾. إنه كتابهم؛ ليس غريباً عنهم ولا مفروضاً عليهم من خارج حياتهم، بل هو حصيلة ما اختاروه. لقد كتبوه بأيديهم قبل أن يلقوه مكتوباً، سطرًا من ظلم، وسطراً من كذب، وسطراً من استيفاءٍ للنفس وإخسارٍ للآخرين. وما المصير إلا انكشاف الصورة الكاملة لما كانوا يصنعون متفرقاً.

قد يبدو فعل اليوم مستقلاً عن فعل الأمس، لكن الكتاب يجمع الأجزاء، وعند جمعها يظهر الاتجاه. كلمة واحدة ربما تبدو هفوة، ونقص واحد ربما يبدو زلة، لكن التكرار يرسم الطريق؛ والكتاب لا يعرض اللحظات متفرقة فقط، بل يكشف النمط الذي صنعه. عندها يرى الإنسان أنه لم يكن يرتكب أفعالاً متناثرة، بل كان يتجه إلى مكان، وأن كل اختيار كان خطوة، وإن لم يسمع وقعها يوماً.

الفرصة التي تسبق إغلاق الكتاب

ومع رهبة المشهد، فإن ذكر الكتاب في الدنيا يحمل رحمة خفية؛ لأن الله يخبرنا به قبل أن نلقاه. ما زالت الصفحات تقبل أثر التوبة، وما زال الحق المسلوب قابلاً للرد، وما زالت السيئة يمكن أن تتبعها حسنة تحوها بإذن الله، وما زال المطفئ يستطيع أن يصحح ميزانه قبل أن يُختم على عمله.

إن أعظم الغفلة ليست أن يخطئ الإنسان، بل أن يعرف أن له كتاباً ثم يعيش كأنه لا يكتب فيه. وأعظم العقل أن يراجع المرء صحيفته وهو قادرٌ على التغيير: أن يتذكر ما لا لم يردّه، ووعداً لم يف به، وسمعةً انتقص منها، وجهداً نسبّه إلى نفسه، وحكماً أماله الهوى؛ ثم لا يكتفي بالندم الشعوري، بل يصلح ما استطاع، ويعيد الحقوق إلى أهلها، ويطلب الصفح من ظلمه، ويغلق أبواب الفجور قبل أن تغلق عليه.

إن التوبة ليست محاولةً لتزيق الكتاب، بل عودةً إلى الله الذي بيده الكتاب والمغفرة، وهي ليست كلمةً يتخفف بها المرء من وخز الضمير ثم يحتفظ بمظالمه، بل انقلابٌ في الاتجاه: من الإخسار إلى الوفاء، ومن الاستعلاء إلى الاعتذار، ومن الإصرار إلى الإصلاح. فحقوق الله

مبناها على رحمته الواسعة، وحقوق العباد تستدعي ردها والتحلل منها بحسب الاستطاعة، حتى لا يلتقى الإنسان في صحيفته حقوقاً كان يستطيع أداءها فأبى.

وهكذا تنقلنا هذه الآيات من السوق إلى السجل، ومن حركة اليد إلى حقيقة المصير. لم ينته التطفيف حين أغلق البائع متجره، بل انتقل إلى كُتاب؛ ولم يضع الفرق الصغير بين الكيلين، بل صار رقماً في سجل لا يغفل؛ ولم يكن الفاجر حراً حين تجاوز حدود الله، بل كان يخطو نحو سجين.

فكل يوم ينقضي لا يأخذ أعمالنا معه إلى العدم، وإنما ينقلها من مجال الفعل إلى مجال الحفظ. نحن الذين نغادر اللحظات، أما آثارها فتبقى؛ ونحن الذين ننسى الأفعال، أما الكُتاب فلا ينسى. وما بين يدٍ تنقص الميزان وكُتابٍ مرقوم تلخص مأساة الفاجر: حسب أنه يأخذ من غيره، ولم يعلم أنه كان يكتب على نفسه؛ وظن أن الشيء القليل لا وزن له، حتى وجده ثابتاً في ميزان الأبد.

الفصل الرابع

الرَّانَ عَلَى الْقُلُوبِ: حين لا يعود التكذيب فكرة بل يصير حجاباً

قال الله تعالى:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿٣﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٤﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿٦﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾

بدأت السورة بويلٍ للمطففين، ثم تعود هنا بالويل للمكذبين، وكأن بين التطفيف والتكذيب طريقاً خفياً تسير فيه النفس حتى تبلغ نهايته. فالذي يعتاد إنقاص حقوق الناس يحتاج مع الزمن إلى تصورٍ يحميه من وخز الضمير؛ لأن النفس لا تستطيع أن تعيش طويلاً وهي تعترف بأنها ظالمة، فتبدأ بإعادة صياغة الحقيقة، وتبتكر لنفسها الأعذار، ثم تنتهي إلى إنكار اليوم الذي سيكشف تهافت أعذارها. وهكذا لا يكون التكذيب دائماً ثمرة شبهة عقلية خالصة، بل قد يكون ستاراً تنسجه الشهوة حتى تواصل سيرها بلا مساءلة.

فلو آمن المطفف بيوم الدين إيماناً حاضراً، لضاقت عليه خيائته، ولسمع في كل حركةٍ للميزان وقع خطاه نحو الحساب؛ ولذلك يصبح التخلص من الآخرة حاجةً نفسيةً لمن يريد أن يحتفظ بالظلم مطمئناً. إن الإنسان قد لا يرفض الحقيقة لأنه عجز عن فهمها، بل لأنه فهم ما تطلبه منه؛ ورأى أنها ستنتزع منه امتيازاته، وتلزمه أن يرد المظالم، وتمنعه من أن

يجعل هواه قانوناً، فاختار أن يصفها بالأسطورة كي يحافظ على أسطوره هو: أسطورة الإنسان الذي يفعل ما يشاء ولا يسأل.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

يأتي الوعيد هنا مقيداً بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي في ذلك اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين، وتُنشر فيه الكتب، وتُتَهرَب فيه كل قدرة على التهرب. لقد كان التكذيب في الدنيا كلمة سهلة؛ يستطيع صاحبها أن ينطق بها ثم يمضي إلى شأنه، ويستطيع أن يضحك بعدها ويأكل وينام كأن شيئاً لم يحدث. أما في ذلك اليوم، فإن الكلمة تستدعي حقيقتها، ويجد المكذب نفسه داخل المشهد الذي قضى عمره ينكره.

ما أهون التكذيب حين يكون المحذور غيباً، وما أثقله حين يصير الغيب شهادة! في الدنيا يقول الإنسان: لا بعث، لأنه لا يرى القبور تنشق أمامه؛ فإذا انشقت، لم تعد المشكلة في غياب البرهان، بل في غياب الفرصة. وهناك يدرك أن التكذيب لم يبلغ الحقيقة، وإنما ألغى استعدادها لها؛ وأن إنكار النار لم يطفئها، وإنكار الكتاب لم يمح حروفه، وإنكار الحساب لم يُسقط منه بنداً واحداً.

فالحقيقة لا تستمد وجودها من اعتراف الإنسان بها؛ الشمس لا تنطفئ لأن أعمى أنكرها، والقيامة لا تتأخر لأن مكذباً سخر منها. إنما الذي يتغير بالتكذيب هو الإنسان نفسه؛ إذ يحرم قلبه من النور الذي كان يمكن أن يقوده، ويعيش ضمن عالم أصغر من الحقيقة، حتى يصطدم في نهايته بما رفض أن يراه في بدايته.

الَّذِينَ يَكْذِبُونَ بَيِّمَ الدِّينِ

تسمي الآية القيامة هنا يوم الدين، والدين يحمل معنى الجزاء والحساب؛ وهو الاسم الذي يصيب موضع المرض في نفس المطفف. إنه لا ينكر مجرد عودة الأجساد، بل يفر من اليوم الذي تُعاد فيه الحقوق إلى موازينها، ويصبح الإنسان مرتباً بما قدم. فالمشكلة العميقة ليست مع إمكان البعث وحده، وإنما مع دلالة الأخلاقية: أنك لست متروكاً لما تشتهي، وأن أفعالك ستعود إليك، وأن ما فعلته بالناس لم ينته عندهم، بل ارتفع إلى ربهم.

يوم الدين هو اليوم الذي ينقطع فيه التطفيف؛ لأن الميزان يصبح لله وحده، فلا يستطيع القوي أن يزيد نصيبه بقوته، ولا أن ينقص من حسابه بحيلته. كل إنسان مجزي بما كسب، وكل حقٍّ عائدٌ إلى موضعه، وكل صورة زائفة تنفصل عن صاحبها، فلا يبقى له إلا حقيقته.

ومن رحمة الله بعباده أن أخبرهم بيوم الدين قبل مجيئه؛ لأن الإخبار بالحساب ليس تهديداً مجرداً، بل إنقاذاً للإنسان من خدعة اللحظة. من عرف أن للزرع حصاداً، اختار بذوره بحذر، ومن عرف أن للكلمة رجوعاً، وزنها قبل أن يطلقها؛ ومن عرف أنه مدينٌ بأعماله، لم يتعامل مع الحياة كأنها مساحةٌ مهملة لا مسؤولية فيها.

لكن النفس التي تريد لذتها بلا قيد ترى في يوم الدين خصماً لها، مع أنه في الحقيقة حارسٌ لإنسانيتها. فالإيمان بالحساب لا يسلب الإنسان حريته، بل يمنع حريته من أن تتحول إلى أداةٍ لاقتراس الآخرين؛ ولا يطفئ فرح الحياة، بل يطهره من أن يُبنى على دمة مظلوم أو حقٍ مسلوب.

الاعتداء الذي يسبق التكذيب

تقول الآية: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾. وتكشف بهذا أن للتكذيب جذوراً سلوكية وأخلاقية؛ فالمعتدي يتجاوز الحد، والأثيم يكثر من مقارفة الإثم أو يلازمه، ثم تنشأ بين سلوكه وتصوره رابطة عميقة. إنه يريد أن يعتدي دون أن يشعر بأنه معتد، وأن يقترب الإثم دون أن يسمع في داخله وعد الجزاء؛ فيلجأ إلى التكذيب لينج نفسه طمأنينةً مصطنعة. وهذه من أعمق الحقائق في فهم الإنسان: أن الأفكار لا تسكن دائماً في منطقة معزولة عن الرغبات. قد يظن المرء أنه اختار موقفه بعد تأملٍ محايد، بينما تكون شهوته قد سبقت عقله، ثم استدعت العقل ليكتب لها مرافعةً بليغة. فالإنسان كثيراً ما يفعل أولاً، ثم يبني فلسفته لاحقاً، ويختار ما يحب، ثم يبحث عما يقنعه بأن اختياره هو الحقيقة.

لا يعني ذلك أن كل شبهة نفاق، ولا أن كل حائرٍ معتدٍ؛ فالقرآن يفرق بين من يطلب الهدى صادقاً ومن يتخذ الجدل غطاءً للإصرار. لكن الآية تتحدث عن تكذيبٍ متصل بالاعتداء والإثم؛ عن إنسانٍ لم تعد المشكلة عنده في نقص الحجّة، بل في رفض الانقياد. إن الحقيقة وصلت إليه، غير أنه علم أن قبولها سيطلبه بتغيير نفسه، وهو يريد تغيير معنى الحقيقة كي تبقى نفسه كما هي.

المعتدي لا يقف عند حدود الأشياء: لا عند حق الآخر، ولا عند حرمة الكلمة، ولا عند مقدار المكيال، ولا عند حد الإنسان المخلوق أمام خالقه. ولهذا يلتقي التطفيف بالتكذيب في أصلٍ واحد: كلاهما يتجاوز للحد؛ هذا يتجاوز مقدار الحق في الميزان، وذاك يتجاوز مقام العبودية فيكذب بخبر الله.

حين تصبح الآيات «أساطير»

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

إنه لا يصغي ليفهم، بل يصغي حتى يجد الاسم الذي يضعه على ما يسمع ليعني نفسه من مواجهته. وحين يعجز عن إبطال قوة الآيات، يحاول إسقاط منزلتها بتسميةٍ ساخرة: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. إنه ينقل الكلام من مجال الوحي إلى مجال الحكايات، لا لأنه أثبت ذلك، بل لأن الاسم الجديد يمنحه شعوراً بأنه تخلص من سلطانه.

وهذه حيلةٌ قديمةٌ متجددة: أن نهرب من الفكرة بتشويه اسمها، وأن نستبدل مناقشة الحقيقة بالصاق وصفٍ بها. فالإنسان إذا سمى الهدى أسطورة، ظن أنه لم يعد مطالباً بالنظر فيه؛ وإذا سمى النصح تشدداً، لم يعد مضطراً لمراجعة نفسه؛ وإذا سمى الأمانة سذاجة، استطاع أن يحتال وهو يشعر بالتفوق؛ وإذا سمى التوبة ضعفاً، واصل كبريائه دون أن يعترف بخسارته.

لكن تغيير الأسماء لا يغير حقائق الأشياء. تستطيع أن تسمي الظلم ذكاءً، لكنه يظل ظلماً؛ وتسمي الجشع طموحاً، لكنه لا يتحول بذلك إلى فضيلة؛ وتسمي التكذيب تحرراً، لكنه لا يحرر صاحبه من الحساب. اللغة قد تخدع الضمير مؤقتاً، لكنها لا تخدع الله، ولا تحو ما في الكتاب المرقوم.

وفي قوله: ﴿إِذَا نُنَادِي عَلَىٰ آيَاتِنَا﴾ يظهر أن المشكلة ليست في غياب النداء؛ فالآيات تُنَادَى، والحجة تقترب، والرحمة تطرق الباب، لكنه أغلق طريق الاستجابة من داخله. إنه يسمع الصوت ولا يتلقى النور؛ لأن التلقي لا يحتاج إلى أذنٍ مفتوحة فغسب، بل إلى قلبٍ لم تستعبده مكاسبه.

كَأَنَّ بَلَّ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ

ترد الآية على دعوهم ردًّا يزيل القناع: ﴿كَلَّا﴾، ليست آيات الله أساطير، وليست المشكلة في قدم أخبارها، بل في قلوبهم التي غطاها ما كانوا يكسبون. لقد نسبوا العيب إلى الوحي، فردّه القرآن إلى موضعه الحقيقي: العيب في أداة الاستقبال، لا في النور؛ في المرآة التي علاها الصدا، لا في الشمس.

والرآن غطاءً يتراكم على القلب بسبب الذنوب، حتى يحجب صفاءه وقدرته على إِبصار الحق. والآية لا تقول إن حاجزًا نزل عليهم بلا سبب، بل تقول: ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ إنهم صنعوا حجابهم بأعمالهم، طبقةً بعد طبقة. كل معصيةٍ لم تتبعها توبة تركت أثرًا، وكل ظلم جرى تبريره أضاف غشاءً، وكل مرةٍ أُسكت فيها صوت الضمير صار صوته في المرة التالية أخفت.

فالذنوب ليس حادثةً تنتهي في خارج الإنسان؛ إنه يحدث شيئًا في داخله أيضًا. قد يسرق المرء مالا من غيره، لكنه يسرق من قلبه شيئًا من الحساسية؛ وقد يكذب لينجو من موقف، لكنه يضعف في نفسه القدرة على احتمال الصدق؛ وقد يظلم خصمه، لكنه يفسد ميزان رؤيته حتى لا يعود قادرًا على إنصاف أحدٍ يخالفه. وهكذا يدفع الإنسان ثمن المعصية مرتين: مرةً في تبعته، ومرةً في القلب الذي غيّره.

في بداية الطريق يشعر العاصي بوخزٍ واضح، فيتألم بعد الذنب، ويستثقل صورته أمام نفسه. فإن عاد إلى الله، كان الألم نفسه باب نجاة؛ لأن القلب الحي يتوجع مما يؤذيه. أما إذا أصر وكرر ويرر، فإن الألم يخف، لا لأن الذنب صار أقل خطرًا، بل لأن القلب صار أقل حياة. كما أن الجسد الميت لا يشعر بالسكين، فإن القلب الذي كثف عليه الرآن قد لا يشعر بقبح الخيانة، ويحسب غياب الألم سلامة، مع أن غياب الألم هنا علامة المرض الأشد.

وأخطر مراحل الران أن ينتقل الإنسان من الحزن على معصيته إلى الفخر بها، ومن إخفاءها حياةً إلى إعلانها تحدياً، ومن طلب المغفرة إلى السخريّة من التائبين. عندئذ لا يعود الغطاء حاجباً للرؤية فقط، بل يبدل معاييرها؛ فيرى النور ظلاماً، والاستقامة تعقيداً، والعفة عجزاً، والتقوى حرماناً، ويصبح صوت الوحي ثقيلاً لأنه يهدد النظام الذي بنته شهواته في داخله.

مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ: القلب ابن اختياراته

اختارت الآية لفظ الكسب؛ لتقرر أن ما يصيب القلب ليس منفصلاً عن السلوك اليومي. الإنسان يكسب قلبه كما يكسب مصيره؛ كل نظرةٍ وتعاملٍ وكلمةٍ وقرار تشارك في تكوينه. لا يوجد فعلٌ محايد تماماً يمر بلا أثر؛ فإما أن يرقق القلب وإما أن يقسيه، وإما أن يفتح نافذةً للنور وإما أن يضيف طبقةً إلى الحجاب.

إننا مشغولون غالباً بما نكسبه من أفعالنا في الخارج: كم ربحت؟ ماذا حققت؟ كيف ظهرت؟ لكن القرآن ينقل السؤال إلى الداخل: ماذا كسب قلبك من هذه الصفقة؟ قد تريح مალًا وتكسب راناً، وقد تفوز في خصومة وتكسب قسوة، وقد تنتزع إعجاب الناس وتكسب رياءً، وقد تخسر منفعةً محرمةً وتكسب قلباً أنقى من الدنيا كلها.

ليست كل الأرباح قابلةً للعد، وليست كل الخسائر ظاهرةً في الحسابات. ثمة إنسانٌ تتسع أمواله ويضيق قلبه، ويزداد نفوذه وتتناقص قدرته على سماع الحق، حتى يصير غنياً بما يملك، فقيراً بما هو عليه. وثمة عبدٌ يفوته شيءٌ من الدنيا لأنه أبى أن يخون، لكنه يعود من الموقف وقد زاد قلبه قوةً وطمأنينةً؛ ذلك هو الربح الذي لا تسجله دفاتر الأرض، لكنه يُرى في عليين.

ومن رحمة الله أن الران ما دام في زمن العمل قابلٌ للإزالة بالتوبة والذكر والاستغفار ورد المظالم ومجاهدة النفس. فالآية لا تجربنا بمرض القلب لكي نياس منه، بل لكي ننتبه قبل أن يغلف الغطاء. والقرآن نفسه نورٌ وصل، والدمعة الصادقة قد تغسل تراكم أعوام، والتوبة ليست محوًا قانونيًا للذنوب فحسب، بل عودةً بالحساسية إلى الروح، حتى يعود القلب يتألم مما كان يمر عليه باردًا، ويشتاق إلى ما كان يراه ثقیلاً.

إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُونَ

بعد أن ذكر الران على القلوب في الدنيا، ذكر الحجاب عن الرب في الآخرة: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُونَ﴾. وبين المجابين صلةً مرعبة: لما حجبوا قلوبهم عن آيات الله بما كسبوا، كان جزاؤهم أن يُحجبوا عن ربهم يوم القيامة. لقد صنعوا في الدنيا حجاب المعصية، فظهر حقيقته في الآخرة حجاب حرمان.

وهذا من أشد العقوبات وأوجعها؛ لأن الحُجْم، على ما فيها من النار، تأتي في الآيات بعد الحجاب: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ﴾. وكأن الحرمان من القرب والكرامة أعظم من ألم النار نفسها. فالإنسان لم يُخلق ليأكل ويملك وينازع وحدها، بل خلق لعبادة ربه ومعرفته والقرب منه، فإذا انتهى إلى الحجاب فقد خسر الغاية التي من أجلها وُجد، ولو كان في الدنيا قد ملأ يديه بكل ما اشتهى.

كان الله سبحانه أقرب إلى العبد بعلمه ورحمته ودعوته، وكانت آياته تُبلى عليه، وأبواب التوبة مفتوحة أمامه، لكنه اختار أن يجعل بين قلبه وبين النور حجاباً من الكبر والإثم. فلما جاء اليوم الذي تنطلع فيه الأرواح إلى الكرامة، وجد الحجاب الذي بناه ينتظره. وما ظلمهم الله، ولكنهم عاشوا محجوبين عن الهدى باختيارهم، حتى صار الحجاب مصيراً.

وليس الحديث عن الحجاب موضع خوضٍ في كيفية غيبية؛ فالله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وإنما نقف عند ما أخبر به الوحي، مؤمنين بعظمة الحرمان، منزهين ربنا عن مشابهة خلقه. وكيفينا من المعنى أن نفهم أن أهل التكذيب يُجرمون يومئذٍ من كرامة القرب والرضوان، وأن تلك خسارةٌ تتضاءل أمامها كل لذةٍ نالوها بمعصيته.

ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ

ثم ينتقلون من حجاب الحرمان إلى مباشرة العذاب: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾. ولفظ صالو يحمل معنى الدخول والمقاساة والملازمة؛ فلم تعد النار خبراً يتندرون به، بل حقيقةً يباشرونها. لقد كانوا في الدنيا يتعاملون مع الوعيد كأنه لغةٌ بعيدة، فإذا اللغة تتحول إلى واقع، والكلمة التي مروا عليها ساحرين تصبح عالمهم الذي لا يستطيعون الخروج منه.

إن الجحيم ليست عقوبةً منفصلةً عن الطريق الذي سلكوه، بل خاتمة التي كانت كل خطوةٍ تشير إليها. الاعتداء يلد الإثم، والإثم المتكرر يصنع الران، والران يقود إلى التكذيب، والتكذيب ينتهي إلى الحجاب، والحجاب يعقبه الجحيم. ليس في السورة قفزٌ مفاجئ من خطأٍ صغير إلى مصيرٍ عظيم، بل عرضٌ لمسار النفس حين تترك التوبة وتستسلم للتراكم.

والعقل لا ينتظر أن يبلغ الطريق نهايته كي يعترف بوجهته. إذا رأى الران يتشكل في قلبه، وإذا صار الحق ثقيلاً عليه، وإذا وجد نفسه يضيق بالنصيحة ويفرح بالمعصية، علم أن عليه أن يتوقف قبل أن يفقد القدرة على التوقف. إن من رحمة الله أن جعل للطريق علامات؛ ووخز الضمير واحدةً منها، والخوف بعد الذنب علامة حياة، والقلق من القسوة باب عافية. المصيبة ليست أن تجد في نفسك مرضاً فتطلب علاجه، بل أن تسمي المرض صحةً وتمنع الطبيب من الاقتراب.

هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ

وفي النهاية يأتي القول الذي يجمع الحسرة كلها: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. كلمة هذا تضع الحقيقة أمامهم حاضرة لا مهرب منها. كان العذاب عندهم وعداً بعيداً، فأصبح مشاراً إليه؛ وكان يوم الدين غيباً، فأصبح شهادة؛ وكان التكذيب مساحة للجدل، فانهتى زمن الجدل وبقيت الحقيقة.

ليس أشد على النفس من أن ترى ما سخرت منه، وأن تجد نفسها داخل النتيجة التي أنفقت عمرها في إنكارها. عندها لا يعود الاعتراف نجاةً، لأن زمن الإيمان الاختياري قد مضى، ولم يعد الكشف يترك مجالاً للامتحان. لقد أرادوا دليلاً حسيّاً قاهراً، فلما جاءهم الدليل في صورة الواقع الأخير، لم يعد نافعاً؛ لأن قيمة الإيمان كانت في أن يستجيبوا للخبر الصادق قبل أن تتحول الآخرة إلى مشهدٍ منظور.

وفي العبارة أيضاً إعادة لما حاولوا طمسه: لم يكن ذلك الذي كذبوا به أساطير، بل كان هذا؛ واقعاً ثابتاً، أدق وجوداً من الدنيا التي اغتروا بها. لقد عاشوا يقبلون مراتب الحقيقة، فجعلوا الفاني أصلاً والباقي وهماء، حتى جاءت القيامة فقلبت الوهم عليهم: تلاشت الدنيا التي حسبوها الحقيقة الوحيدة، وبقي اليوم الذي سموه أسطورة.

وهكذا يرسم هذا المقطع تشريحاً بالغ العمق لسقوط القلب: يبدأ الإنسان باعتداءٍ يريده، فيرتكب الإثم، ثم يثقل عليه صوت الحساب، فيكذب بيوم الدين، ويصف الآيات بالأساطير، فتتراكم على قلبه آثار ما يكسب، حتى يُحجب عن النور في الدنيا، وعن الكرامة في الآخرة، ثم يصلى الجحيم ويواجه الحقيقة التي أنكرها.

إن أخطر ما في المعصية ليس لذتها العابرة، بل قدرتها على أن تعيد تشكيل بصيرة الإنسان حتى لا يعود يرى الخطر خطراً. وأعظم ما في التوبة أنها لا تنقذ صحيفة العبد فحسب، بل تنقذ قلبه من أن يتحول إلى سجنٍ مغلق. فقبل أن يقول الإنسان عن الوحي: لا أراه حقاً، عليه أن يسأل نفسه بصدق: أأكون العيب في النور، أم أن شيئاً مما أكسبه قد غطى نافذتي؟

كم من حقيقة لم نرفضها لضعف برهانها، بل لأنها طلبت منا أن نتغير، وكم من آية بدت ثقيلة لأن بيننا وبينها حقاً لم نرده، أو شهوة لم نتركها، أو كبرياء لم نكسره. والنجاة تبدأ من الشجاعة في نقل الاتهام من الآية إلى القلب، ومن أن يقول العبد: لعل الحجاب في داخلي، ثم يطرق باب ربه مستغفراً، قبل أن يصير الران حجاباً، والحجاب حرماناً، والحرمان جحيماً.

إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنَ: حين ترفع الطاعة صاحبها قبل أن ترفعه صحيفته

قال الله تعالى:

﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنَ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلْيُونَ ﴿٢﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٣﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٤﴾﴾

بعد ذلك المقطع الثقيل الذي انحدر فيه كتاب الفجار إلى سجين، وتراكم فيه الران على القلوب حتى انتهى بأصحابه إلى الحجاب والحجم، تنفتح السورة فجأة على أفقٍ آخر؛ كأن نافذة من النور شُقت في جدار المشهد، وكأن القلب الذي أثقله الانحدار يُدعى الآن إلى أن يرفع بصره. هناك سجين، وهنا عليون؛ هناك حجاب، وهنا شهود من المقربين؛ هناك أعمالٌ تضيق بأصحابها حتى تحبسهم، وهنا أعمالٌ تسمو بهم حتى تلحقهم بمقامات العلو.

وهذا التقابل ليس مجرد توزيع للمصائر في الآخرة، بل كشف لطبيعة الطريقين منذ الدنيا. فالفجور هبوطٌ وإن بدا لصاحبه صعوداً، والبر ارتفاعٌ وإن بدا في أعين الناس حرماناً؛ لأن قيمة الطريق لا تُعرف بما يمنحه في لحظته، بل بالمكان الذي ينتهي إليه. قد يرتفع الفاجر في حسابات الأرض بالمال والنفوذ، بينما تكتابه يهوي إلى سجين، وقد يعيش البار مجهولاً لا تلتفت إليه العيون، بينما عمله يُرفع إلى عليين وتشهد صحيفته الملائكة المقربون.

إن السورة تعيد تعريف العلو؛ فليس العالي من علت مكانته بين الناس بالضرورة، ولا من كثر أتباعه، ولا من امتلأت المجالس بذكره، وإنما العالي من ارتفع كتابه عند الله. كم من

اسمٍ ضخمٍ في الأرض لا وزن له في السماء، وكم من عبدٍ مرَّ على الدنيا هادئاً لم يتوقف له المنابر، لكن له في عليين أثرٌ وذكرا! إن الشهرة ضوءٌ تسلطه العيون، أما القبول فنورٌ يضعه الله، وبين الضوء والنور من الفرق ما بين صورة الإنسان وحقيقته.

كَلَّا: ليس الفائز من ظننتم

تبدأ الآيات مرةً أخرى بـ ﴿كَلَّا﴾، كلمة الردع والتصحيح، كأنها تقطع وهماً متجدداً: كلا، ليست موازين الدنيا هي الموازين الأخيرة؛ وليس الذين استوفوا لأنفسهم وأخسروا الناس هم الراجحون لأن أموالهم زادت، وليس الأبرار خاسرين لأنهم حرّموا أنفسهم مكسباً محرّماً، أو فوتوا فرصةً كان يمكن أن ينالوها بالخداع.

كلا؛ إن للصادقين حساباً آخر لا يظهر في دفاتر التجارة، وإن للأمانة ربحاً لا تقيسه العملات، وإن التنازل عن الحرام ليس نقصاً بل صعود. فالذي يرد زيادةً ليست له قد يبدو أمام المفتونين بالمال ساذجاً، لكنه في ميزان الحق يكتب لنفسه سطرًا من نور. والذي يستطيع أن ينتقم فيعفو ابتغاء وجه الله، قد يظنه الناس ضعيفاً، بينما يكون قد انتصر على أعقَى خصومه: الهوى الكامن في داخله.

إن ﴿كَلَّا﴾ تحرر المؤمن من ابتزاز النتائج العاجلة. ليس كل من ربح الآن فائزاً، ولا كل من خسر الآن مهزوماً. قد تكون خسارتك في الدنيا هي الثمن الذي اشتريت به سلامة كتابك، وقد يكون المكسب الذي حسدك الناس عليه حجراً يهبط بك إلى سجين. والمشكلة أن العين ترى يد الإنسان ممثلةً ولا ترى صحيفته، وترى منزلته بين الخلق ولا ترى موضع كتابه؛ فجاء القرآن ليكشف البعد المحجوب من الحساب.

من هم الأبرار؟

لم تقل الآية: إن كتاب المؤمنين فحسب، بل قالت: ﴿كِتَابَ الْأَبْرَارِ﴾. والبر كلمة واسعة تجمع صدق الإيمان وصلاح العمل، وتحمل معنى الاتساع في الخير، ومنه البر لسعته. فالبار ليس من يؤدي حركةً صالحةً عبارة ثم يغلق قلبه عن الخلق، وإنما من اتسعت طاعته حتى صارت خلقاً، واتسع قلبه حتى جاوز أنانيته، واتسع خيره حتى وصل إلى غيره.

إن البر هو الصورة المقابلة للتطفيف. المطفف يطلب الزيادة لنفسه ولو نقص الآخر، أما البار فيوفي ما عليه، وربما زاد من الإحسان فوق حد العدل. المطفف يعيش في ضيق الأنا، والبار يخرج من ذلك الضيق إلى سعة العطاء. المطفف يسأل: ماذا آخذ؟ والبار يسأل: ماذا يجب عليّ؟ ثم يسمو فيسأل: ماذا أستطيع أن أبذل فوق الواجب؟

والبر لا يقتصر على مظهرٍ تعبدي منفصلٍ عن المعاملة؛ فالقرآن لا يعرف انفصال السجود لله عن العدل مع عباده. قد يطيل الإنسان صلاته، ثم يطفف في حقوق الناس، فيكون قد أقام صورة العبادة ولم يسمح لنورها أن يصل إلى ميزانه. إن العبادة التي لا تهذب المعاملة ما زالت محاصرةً في الجوارح، والذكر الذي لا يوقظ الضمير لم يبلغ غايته، والتدين الذي يمنح صاحبه شعور التفوق ولا يمنح الناس منه أماناً يحتاج إلى مراجعة عميقة.

البار هو الذي يوحد موازينه؛ فلا يكون له وجهٌ في المسجد ووجهٌ في السوق، ولا ضميرٌ مع من يحب وضميرٌ آخر مع من يخاصم. يعلم أن رب المحراب هو رب المعاملة، وأن العين التي تراه قائماً في الليل تراه يزن للناس في النهار. ولذلك لا تصبح عبادته استراحةً من الأخلاق، بل تصبح مصدرها؛ يخرج من الصلاة أشد خوفاً من الظلم، ومن الصيام أقدر على ضبط الشهوة، ومن تلاوة القرآن أرحم بالخلق وأوفى بالعهد.

إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ: الخير الذي لا يضع في صمته

كما أن للفجار كتاباً، فلا أبرار كتاب. والعدل الإلهي لا يحفظ الإساءة وحدها، بل يحفظ الإحسان أيضاً. ليست ذاكرة الوجود سجل اتهام خفسب، وإنما هي سجل وفاء؛ نُتبت فيه كل يد امتدت بالخير ثم نسيها الناس، وكل كلمة طيبة أعادت إلى قلب مكسور بعض قوته، وكل حق أداه صاحبه حين لم يكن أحد قادراً على مطالبة به.

قد ينسى المرء أعمال البر التي فعلها خفية، وقد يموت من أحسن إليهم فلا يبقى من يشهد له في الأرض، لكن كتاب الأبرار لا يحتاج إلى ذاكرة البشر. كم من أم أنفقت شبابها في تربية أبنائها، ثم مضت دون أن يكتب أحد تاريخ تعبها؛ وكم من أب أخفى خوفه وتعبه كي يمنح أسرته الطمأنينة؛ وكم من إنسان حمل عن أخيه همّاً ولم يخبره؛ وكم من صاحب حق عفا وهو قادر، أو مؤتمن رد أمانة لا يعلم بها أحد! تلك الأعمال التي عبرت الأرض بلا تصفيق لم تعبر السماء بلا تسجيل.

إن الله لا يضيع الخير لأنه كان صغيراً، كما لا يهمل الظلم لأنه كان صغيراً. فاللقمة التي وضعتها في يد محتاج، والكلمة التي أمسكت عنها لثلا تجرح، والنظرة التي غضضتها، والمال الذي تركته لشبهة، والإنصاف الذي منحته لخصمك؛ كل ذلك يجد موضعه في الكتاب. وقد يكون العمل صغيراً في صورته، لكنه عظيم بما حمله من صدق ومجاهدة.

وفي هذا عزاء للأبرار الذين يعملون في صمت؛ فلا ينبغي للعبد أن يربط قيمة فعله بمقدار ما ناله من الاعتراف البشري. الناس يرون الظاهر، وربما نسبوا الخير إلى غير صاحبه، أو مروا عليه دون شكر، لكن العمل لم يؤد إليهم في الأصل، بل لله. ومن عرف أن له كتاباً عند الله، لم يساوم على إخلاصه ليحصل على صفحة في ذاكرة الناس.

لَفِي عَالَمَيْنِ: لكل عمل جهة

كما حملت كلمة سجين دلالة الهبوط والضيق، تحمل عليون دلالة السمو والارتفاع. وقد وردت في تفسيرها أقوالٌ تدور حول الموضوع العالي الذي يكون فيه كتاب الأبرار، وسجل أعمالهم في مراتب العلو، ونقف في حقيقة الغيب عند خبر الوحي من غير تكلفٍ لما لم يبينه. غير أن المعنى الظاهر يملأ القلب: أعمال البر لا تضيع في السفح، وإنما تصعد؛ وكتاب الأبرار لا يهمل، بل يوضع في مقامٍ من العلو يناسب طهارة ما حواه.

إن لكل عملٍ اتجاهًا وإن كان صاحبه لا يراه: فعلٌ يهبط بالإنسان، وفعلٌ يرفعه. الكلمة قد تكون درجةً إلى عليين، وقد تكون حرجاً إلى سجين؛ والمال نفسه قد يعلو بصاحبه إذا أدى حقه، وقد يهوي به إذا جمعه من الظلم؛ والقدرة قد تصبح جناحاً حين تُسخر لنصرة الضعيف، وقد تصبح قيداً حين تتحول إلى استعلاء.

ولا يرتفع العبد بكثرة الحركة وحدها، بل بصدق الوجهة. قد يكون العمل ضخماً في أعين الناس لكنه محملٌ بالرياء، فلا يصعد منه إلا صورته الفارغة؛ وقد تكون الطاعة خفيةً صغيرة لا يعلم بها أحد، لكن الإخلاص يمنحها أجنحةً من نور. فالله لا ينظر إلى ضخيم العمل، بل إلى حقيقته؛ ولا إلى اتساع أثره الظاهر وحده، بل إلى مقدار العبودية التي امتلأ بها.

عليون ليست مكاناً للصحيفة فحسب في دلالة السياق، بل إعلانٌ أن البر نفسه علو. قبل أن يصل كتاب البار إلى عليين، يكون البر قد رفع صاحبه في الدنيا: رفعه فوق شهوة الانتقام، وفوق مذلة الطمع، وفوق الحاجة إلى مدح الناس، وفوق أن يبيع ضميره من أجل منفعة. قد يكون فقير المال، لكنه عالٍ على ما يستعبد الأغنياء؛ وقد يكون ضعيف السلطان، لكنه قويٌّ على نفسه، ومن قوي على نفسه فقد ظفر بملكٍ لا تمنحه التيجان.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُّونَ

كما قالت السورة في سجين: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ﴾، تقول هنا: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُّونَ﴾. فكما أن هول المهبوط يتجاوز تصوراتنا، فإن جلال الصعود يتجاوزها أيضاً. والإنسان لا يعجز عن تصور العقوبة وحدها، بل يعجز كذلك عن الإحاطة بما أعده الله لأهل البر من الكرامة.

نحن نحاول فهم المكافأة بمقاييس الدنيا: بيتٌ أجمل، وراحةٌ أطول، ولذةٌ أصفى؛ لكن عليين تفتح المعنى على مقامٍ أسمى من كل ما ألفناه. ليست القضية زيادةً في متاع يشبه متاعنا، بل قربٌ ورضوان وكرامةٌ في عالمٍ لم تطأه خيالاتنا. وإذا كان الله قد جعل كتاب البر في مقامٍ لا ندرك عظمتَه، فكيف بما أعده لصاحب الكتاب؟

إن الجهل بتفاصيل النعيم ليس نقصاً في الوعد، بل بابٌ من أبواب اتساعه. فلو أحاطت مخيلتنا به لكان محدوداً بحدود خبرتنا، لكن الله أعد لعباده ما لا يبلغه وصفنا. يكفي البار أن يعلم أن عمله يصعد إلى موضع يسأل الوحي نفسه عنه سؤال التعظيم: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُّونَ﴾، حتى يهون عليه ما فاته من مدارج الأرض.

كِتَابٌ مَرْقُومٌ: دقة العدل في تسجيل النور

يتكرر الوصف: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾. فكتاب الأبرار مضبوطٌ كما كان كتاب الفجار مضبوطاً؛ لأن العدل لا يتجلى فقط في ألا تُنقص العقوبة، بل في ألا تُبخس المثوبة. الله سبحانه لا يطفئ عباده في الجزاء؛ بل يكتب الحسنة ويحفظها، ويضاعفها بفضله، ويعلم ما صاحبها من مشقةٍ لا يراها الناس.

ربما قام اثنان بالفعل نفسه، لكن أحدهما أداه بسهولة، والآخر انتزعه من قلبه انتزاعاً بعد صراعٍ شديد؛ والناس يرون تشابه الصورة، أما الكتاب فيحفظ اختلاف الحقيقة. قد

يتصدق الغني بمبلغ كبير لا يشعر بفقده، ويمنح الفقير شيئاً قليلاً لكنه اقتطعه من حاجته؛ الأرقام البشرية قد تعظم الأول، أما العلم الإلهي فيحيط باليد والقلب والحاجة والنية. وقد يصمت إنسانٌ عن إساءةٍ لأنه لم يجد جواباً، ويصمت آخر وهو قادرٌ على سحق خصمه لكنه خاف الله؛ الصمت واحدٌ في الظاهر، غير أن ما كُتب مختلف. وقد يترك المرء الحرام لأنه لم يصل إليه، ويتركه آخر حين صار بين يديه؛ الترك في العين واحد، لكن المجاهدة ليست واحدة. والكتاب المرقوم لا يسوي بين حقائق مختلفة، ولا يفوت للعبد ذرةً من صدقه.

وفي مقابل التطفيف الذي افتتحت به السورة، يمنحنا الكتاب المرقوم طمأنينةً كاملة: هناك لا نقصان. إن ظلمك الناس في تقديرك، فلن يظلمك ربك؛ وإن نسبوا جهدك إلى غيرك، فالكتاب يحمل اسمك؛ وإن شككوا في نيتك الصادقة، فالله يعلمها؛ وإن انكسر عملك في الطريق قبل أن تظهر ثمرته، فقد كُتب لك ما عقد عليه قلبك وبذلت فيه وسعك، وفق علم الله وعدله وفضله.

يَشْهَدُ الْمُقْرَبُونَ

ثم تبلغ الكرامة ذروتها في قوله: ﴿يَشْهَدُ الْمُقْرَبُونَ﴾. يشهد هذا الكتاب أهل القرب والكرامة من الملائكة، فيكون محضراً مشهوداً في الملأ الأعلى. يا عظيمة المفارقة: إنسانٌ قد لا يشهده في الأرض أحد وهو يرد الأمانة، لكن عمله مشهودٌ في السماء؛ وقد لا يعرف الناس اسمه، لكن كتابه حاضرٌ حيث يشهده المقربون.

إن النفس تثوق إلى أن تُرى؛ وهذه الرغبة قد تدفعها إلى الرياء إذا لم يهذبها الإيمان. لكن القرآن لا يطلب من الإنسان أن يعمل كأنه غير مرئي، بل يعلمه أنه مرئيٌّ من الجهة التي

تستحق أن يعمل لها. أنت لا تعمل في فراغ، ولا يضيع إخلاصك لأنه لم يلتفت إليه الناس؛ ثمة شهودٌ أظهر من جمهور الأرض، وثمة تسجيلٌ لا يحتاج إلى حملة إعلامية، وثمة مقامٌ لا يناله صاحبه بصناعة الصورة، بل بصدق السريرة.

وكلها استقر هذا المعنى في القلب، استغنى العبد عن الاستعراض. ليس معنى ذلك أن يكره الثناء الصادق أو يمتنع عن كل عملٍ ظاهر؛ وإنما ألا يكون نظر الناس هو الوقود الذي يحركه. يعمل إن شهوده، ويعمل إن غابوا؛ لأن الشاهد الحقيقي لا يغيب. وإذا أثنوا عليه خاف أن يكون الثناء أكبر من حقيقته، وإذا تجاهلوه لم يترك الطريق، لأنه لم يبدأه من أجلهم.

وفي لفظ المقربين معنى يفتح باب الشوق: إن القرب من الله هو الغاية العليا، على الوجه اللائق بجلاله سبحانه من غير تشبيه ولا تكييف. فليس العلو علو مكانةٍ دنيوية، وإنما علو القبول والكرامة والرضوان. وكتاب الأبرار يشهده المقربون لأن البر يحمل روح القرب: كلما خرج الإنسان من سلطان هواه واقترب من مراد ربه، اقترب قلبه من النور؛ وكلما وثق لعباد الله حقوقهم، دلَّ على صدق عبوديته لربه.

بين الرقابة والشهادة

في أول السورة كان المطفف يختار اللحظة التي تغيب فيها أعين الناس لينقص الميزان، وهنا نعلم أن حياة الإنسان كلها محاطةٌ بشهادةٍ لا تنقطع. غير أن الفرق عميق بين من يشعر بالرقابة كتهديدٍ دائمٍ ومن يعيشها بطمأنينةٍ أيضًا. الفاجر يخشى أن تكشف خيائته، أما البار فيأمن بأن خيره لا يضيع؛ هذا يريد أن يهرب من الشاهد، وذاك يواصل الطريق لأن الله يشهد.

الإيمان بالكُتاب إذن يربي الخوف والرجاء معاً: تخاف أن يكتب عليك ظلم، وترجو أن يُحفظ لك خير؛ تحذر من خيانة السر، وتطمئن إلى أن تضحية السر لن تُنسى. ومن عاش بأحد الجناحين دون الآخر اختلّ سيره: الخوف وحده قد يورث اليأس، والرجاء المنفصل عن المسؤولية قد يتحول إلى أمانٍ كاذب؛ أما القرآن فيريك سجيناً حتى لا تغتر، ثم يريك عليين حتى لا تقنط.

الطريق إلى عليين يبدأ من ميزانٍ صغير

ربما يتخيل الإنسان أن عليين لا تُنال إلا بأعمالٍ هائلةٍ يعجز عنها عامة الناس، لكن سياق السورة يربط هذا العلو بأكثر تفاصيل الحياة بساطةً: أن توفي الكيل، وألا تنقص حقاً، وأن تتذكر يوم الدين وأنت تمارس عملك اليومي. إن الطريق إلى المقامات العليا قد يبدأ من متجرٍ صغير، ومن ميزانٍ لا يراه أحد، ومن درهمٍ كان يستطيع صاحبه أن يأخذه فأعاده.

فالقداسة في المنظور القرآني لا تنفصل عن الحياة؛ قد يرتفع الإنسان إلى عليين من داخل السوق، كما قد يهوي إلى سجين وهو يملك هيئةً توهم بالصلاح. ليست الأماكن وحدها هي التي تمنح العمل قيمته، بل ما يحمله القلب من تقوى وما يصنعه الفعل من عدل. وقد يكون أداء الحق في لحظة طمع أشق على النفس من نوافل كثيرة، لأن الاختبار هناك يمس ما تحبه مباشرة.

كلما قدمت حق غيرك على شهوة نفسك، قطعت خطوةً في طريق البر. كلما أنصفت من تكره، وصدقت حين كان الكذب ينجيك، ووفيت حين كان النكث أنفع لك، اتسع قلبك وارتفع كتابك. والبر ليس قفزةً واحدة، بل تراكمٌ من الاختيارات النقية؛ كما كان الران تراكمًا من المكاسب المظلمة، يكون النور تراكمًا من الطاعات الصادقة.

وهكذا تقابل السورة بين مسارين: ما كانوا يكسبون فصار راءاً، وما كان الأبرار يعملون فصار كتاباً في عليين. كلا الفريقين كتب نفسه باختياراته، لكن أولئك كانوا يضيفون إلى الحجاب طبقة، وهؤلاء كانوا يضيفون إلى الارتفاع درجة. أولئك حُجِّبوا، وهؤلاء شهد كتابهم المقربون؛ أولئك انتهوا إلى ضيق سجين، وهؤلاء إلى سعة العلوم.

فلا تحزن إن لم يرك الناس وأنت تغي، ولا تندم على منفعة تركتها لله، ولا تحسب أن الأمانة التي لم يصفق لها أحد قد ضاعت. هناك كتابٌ مرقوم، لا تسقط منه نيةٌ صادقة ولا رجفة مجاهدة، وهناك عليون، حيث تسترد الأعمال أجماعها الحقيقية، وهناك شهودٌ مقربون يرون ما غاب عن عيون الأرض.

قد تعيش مجهولاً في دفاتر الناس، لكن العبرة بموضعك في كتاب الله؛ وقد يكون اسمك صغيراً في المجالس، بينما عملك عظيمٌ في الملاء الأعلى. فالعلو لا يبدأ حين يعرفك الخلق، بل حين يعرف الله منك صدقاً؛ ولا يتحقق حين تتقدم أمام الناس، بل حين تتقدم على هواك؛ ولا يُقاس بما جمعت تحت قدميك، بل بما رفعت إلى السماء من برٍّ لا يزال يصعد بك، حتى يبلغ كتابك الموضع الذي يليق بعبدٍ أعطى الحقوق كاملةً، لأنه كان يرجو عند ربه فضلاً لا نقص فيه.

وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ: حين تتغير قبلة الرغبة

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٣﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٤﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴿٥﴾ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٦﴾ وَمِرَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٧﴾ عَيْنًا يُشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٨﴾﴾

بعد أن أخبرتنا السورة عن كتاب الأبرار في عليين، تنتقل من منزلة الكتاب إلى حال أصحابه، ومن الصحيفة المرفوعة إلى الإنسان الذي رفعته طاعته. فإذا هم في نعيم، لا يمرون به مروراً، ولا يذوقونه لحظة ثم يفارقونه، بل يحيط بهم إحاطة الظرف بما فيه، كأن النعيم صار وطنهم، وصاروا في داخله آمنين من كل انقطاع.

وهذه النقلة تكشف أن الله لا يحفظ أعمال عباده الصالحين ليعرضها عليهم فحسب، بل ليجزيهم بما يتجاوز مقدار ما صنعوا. فالإنسان يقدم عمراً محدوداً، ويُمنح نعيماً خالداً؛ يصبر عن شهوة عابرة، فيُفتح له باب لذة لا تنتهي؛ يرد مقداراً يسيراً من الحرام، فيعطيه الله ما لا ينفد. وما ذلك بمقابلةٍ حسابية بين عملٍ وجزاء، بل هو فضل الله الذي جعل العمل سبباً، ثم أغدق من رحمته ما لا تستحقه طاقة الإنسان المحدودة بذاتها.

لقد كان المطفون يتنافسون على الزيادة القليلة، وينقصون من مكاييل الناس ليضيفوا إلى أرصدتهم مقداراً لا يكاد يرى؛ فتأتي هذه الآيات لتضع أمامهم الرحيق المختوم وتسنيماً

ونعيمًا لا يزول، وكأنها تسألهم: ألهذا القليل بعم ذلك الكثير؟ ومن أجل زيادة تدخل أيديكم لحظةً، تخاطرون بنعيم لو أبصرتم طرفاً منه لزهتم في كل ما تنقصه الموازين؟

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ

التعبير مؤكّد بـ ﴿إِنَّ﴾، كما أكد قبلها أن كتابهم في عليين؛ لأن الوعد هنا حقيقة، لا أمنية يُسكن بها الضعفاء أحزانهم. قد يرى الناس الأبرار في الدنيا داخل التعب والابتلاء، لكن القرآن يصف حقيقتهم النهائية: ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾. فالعبرة ليست بالمقطع العابر الذي تراه العين، بل بالخاتمة التي يعلمها الله.

والنعم ليس مجرد غياب الألم؛ إنه امتلاء بالرضا والسرور والكرامة والأمن. فكم من إنسان لا يتألم في جسده، لكنه يعيش فقير القلب، مطارداً بالخوف، لا يعرف طمأنينةً في ملكه! أما نعيم الآخرة فليس ظاهراً يخفي وراءه القلق، ولا لذةً تحمل في جوفها الخوف من انقضائها. لقد نزعَتْ منه كل الشوائب التي تكرر نعم الدنيا: لا مرض يترصد بالصحة، ولا فراق يختبئ خلف اللقاء، ولا شيخوخة تزحف إلى القوة، ولا موت يقف في نهاية الفرح.

في الدنيا، حتى أجمل النعم تهمس لصاحبها بأنها راحلة؛ ولذلك يعانقها وفي قلبه خوف فقدها. أما هناك، فلا يخاف الأبرار أن يفتحوا قلوبهم كاملةً للفرح؛ لأن الخلود أخرج من النعيم سكين الزمن. لا تأتي لحظة تقول لهم: انتهى، ولا يطرق بابهم خبر يفصلهم عن يحبون، ولا يستيقظون من سعادةٍ على احتمال زوالها.

وإذا كان الفجار في سجين، فإن الأبرار في نعيم؛ ضيقٌ يقابل السعة، وهبوطٌ يقابل العلو، وحجابٌ يقابل الكرامة. وهذه المقابلات ليست زينةً بيانية، بل عدلٌ يناسب ما اختار كل

فريق: من ضيق على الناس حقوقهم انتهى إلى الضيق، ومن وسع عليهم بالبر أدخل في سعة النعيم.

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ

يرسم القرآن المشهد في سكينته: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾. الأرائك سرر في المجال، تجمع معنى الراحة والزينة والستر والكرامة. وقد انتهى الكد، وسقط الخوف، وجلس الذين كانت الدنيا تطاردهم بحاجاتها في مقام لا يطاردهم فيه شيء.

إن الجلوس على الأرائك ليس مجرد راحة جسدية؛ بل إعلان أن زمن القلق قد انقضى. كانوا في الدنيا قائلين بالواجب، يجاهدون الهوى، ويقاومون الإغراء، ويخشون على قلوبهم، ويؤدون الحقوق وإن ثقلت؛ أما الآن فقد بلغوا دار الجزاء، حيث لا تكليف ولا صراع مع النفس، وإنما راحة تليق بمن أتعبوا أجسادهم وقلوبهم في طاعة الله.

ثم يقول: ﴿يَنْظُرُونَ﴾، ويترك متعلق النظر مفتوحاً في اتساع المشهد؛ ينظرون إلى ما أكرمهم الله به من النعيم، وما أعد لهم من الملك والبهجة، وينظرون في أمن لا يخشى صاحبه أن يرى ما يحزنه. وقد ذكر أهل التفسير في عموم الآية وجوهاً، والمعنى يحتمل اتساع النظر إلى ألوان النعيم، مع إثبات ما ثبت في نصوص الوحي من كرامة المؤمنين برؤية ربهم على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيه ولا تكيف؛ فالله سبحانه ليس كمثله شيء.

وفي النظر معنى يتجاوز امتلاك النعمة إلى القدرة على التلذذ بها. قد يملك الإنسان في الدنيا أشياء كثيرة لكنه لا يراها؛ لأن القلق يشغله، أو الطمع يدفع عينه إلى ما في يد غيره، فيعيش محاطاً بالنعيم محروماً من شهودها. أما الأبرار فقد طهرت نفوسهم من المقارنة والحسد

والخوف، فصار نظرهم نفسه نعيمًا؛ لا يرون نقصًا، ولا تمتد أعينهم إلى ما لم يُعطوا، لأن الرضا قد ملأ كل فجوة.

تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ

للعيم أثرٌ لا يحتجب؛ ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾. لم يقل: ترى فقط، بل تعرف؛ فالعلامة واضحة، والبهجة قد سكنت الملامح حتى صار الوجه ترجمان ما وراءه. إن نعيمهم ليس ثوبًا يلبس فوق قلبٍ متعب، بل حقيقة بدأت في الداخل ثم فاضت على الوجوه.

كم تستطيع الوجوه في الدنيا أن تكذب! قد يتسم الإنسان وفي داخله انهيار، وقد يزين صورته ليخفي وحشته، وقد يبدو منتصرًا وهو يعرف في سريره حجم هزيمته. أما في الآخرة، فتسقط المسافة بين الظاهر والباطن؛ يظهر على وجوه الفجار ما استقر في أرواحهم، ويظهر على وجوه الأبرار نور ما امتلأت به قلوبهم.

والنضرة هي الحسن والإشراق والبهجة؛ كأن النعيم لم يمنحهم أشياء فحسب، بل أعاد خلق ملامحهم في صورة من الصفاء. فالجزء لا يحيط بهم من الخارج فقط، بل يدخل فيهم؛ يشربونه طمأنينةً، ويرتد على وجوههم نورًا. وكما كان الران أثر المعاصي على القلوب، فإن النضرة أثر النعيم على الوجوه: هناك كسبٌ غطى، وهنا برٌّ أشرق.

وللوجوه في القرآن تاريخٌ أخلاقي؛ فالوجه موضع الهوية والكرامة، وعليه تظهر آثار الخشوع أو الاستكبار، والخوف أو الطمأنينة. وفي الدنيا قد يطيل المرء العناية بظاهر وجهه، لكنه يهمل الوجه الذي سيلقى الله به؛ يزيل آثار التعب من بشرته ولا يزيل آثار الحقد من قلبه، ويطلب النضارة من الأشياء ويغفل عن نضرة الطاعة. والآية تعيد ترتيب العناية: النضرة الأخيرة لا تُشتري، بل تُزرع في الدنيا بالبر، ثم يحين أوان ظهورها الكامل في دار النعيم.

يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ

ثم ينتقل المشهد إلى الشراب: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾. والرحيق شرابٌ خالصٌ مصفى، لا كدر فيه ولا أذى. جاء الفعل مبنياً للمجهول تعظيماً للتكريم، فكأن العناية تحيط بهم، ويخدمون ويسقون في مقام الضيافة الإلهية.

كانوا في الدنيا يسقون غيرهم من الرحمة، ويواسون القلوب، ويتركون لأنفسهم بعض الرغبات كي لا يظلموا؛ فإذا هم اليوم يسقون. من أعطى الله لم يضع عطاؤه، ومن حرم نفسه الحرام لم يترك بلا عوض؛ فالكون في ميزان الله ليس آلة تستهلك الطيبين، بل دار امتحانٍ يعقبا وفاءً كامل.

والرحيق مختوم؛ مصونٌ لم تمسه يد العبث، محفوظٌ لأهله حتى يبلغوه. والختم يشعر بالخصوصية والنفاسة والتهارة؛ فهو ليس شراباً مبتدلاً امتدت إليه الأيدي، بل كرامةٌ أعدت وانتظرت أصحابها. وفي هذا المعنى تسليّةٌ لكل من حفظ نفسه في الدنيا: كما صنت قلبك وجوارحك عما حرم الله، صان الله لك شراباً مختوماً؛ وكما أغلقت أبوابك دون الشهوة المحرمة، فُتح لك من النعيم ما لا يخطر لك على بال.

إن الدنيا تعرض لذاتها مفتوحةً مستعجلة: خذ الآن، ولو من الحرام؛ اشرب الآن، ولو من كدر الخطيئة؛ اقتنص اللحظة، فلا ضمان للغد. أما الإيمان فيعلم الإنسان الصبر على المؤجل؛ ليس لأنه يكره اللذة، بل لأنه يطلب اللذة الكاملة الطاهرة، ويرفض أن يشتري متعةً قصيرةً بألم طويل. الزهد الحق ليس عداوةً للجمال، وإنما رفضٌ للجمال المسموم في انتظار الجمال الذي لا يخون.

خِتَامُهُ مِسْكٌ

﴿خَتَامُهُ مِسْكٌ﴾؛ نهاية الشراب طيب، وآخر اللذة عبق، فلا مرارةً تعقبها، ولا ندمًا يطاردها. وهذا هو الفارق العميق بين لذات الدنيا المحرمة ونعيم الآخرة: المعصية قد تبدأ حلوةً وتنتهي مرارة، أما الطاعة فقد تبدأ بمجاهدة وتنتهي مسكًا.

كم من شهوةٍ كان أولها وعدًا بالفرح وآخرها ضيقًا وفضيحةً وانكسارًا! وكم من مالٍ حرام بدا عند قبضه زيادةً، ثم صار قلقلًا في القلب ونزاعًا في البيت ومحققًا في البركة! وكم من كلمة انتقامٍ أراحت الغضب لحظة، ثم تركت وراءها جرحًا لا يلتئم! هذه لذاتٌ مختومة بالحسرة، وإن تعطرت بدايتها.

أما طريق البر، فقد يكون أوله شاقًا: أن تمسك يدك عن حقٍّ ليس لك، وأن تغفو والقلب يغلي، وأن تصدق وأنت تعلم أن الصدق قد يكلفك، وأن ترد الأمانة وأنت محتاج. لكن هذه المشقة لا تبقى صورتها الأخيرة؛ إن ختامها سكينَةٌ في الدنيا، ثم مسكٌ في الآخرة. وما أعظم الفرق بين من يقيس الأمور ببداياتها ومن ينظر إلى خواتيمها!

إن الشيطان يعرض البدايات ويخفي النهايات؛ يريك لمعان المال ولا يريك سجينًا، ويقرب لذة الذنب ويبعد عنك الران، ويزين لحظة الغلبة ويخفي ذل الوقوف. أما القرآن فيكشف الختام: هنا بحجم، وهناك مسك. ومن أبصر الخاتمة لم تخدعه الزينة الأولى.

وفي كلمة ختامه إشارةٌ تربويةٌ رقيقة: لا تحكم على الطريق من أول التعب. قد تبكي في بداية التوبة، وتفقد شيئًا حين تمسك بالحق، وتشعر بالوحشة حين تفارق بيئة المعصية؛ لكن انتظر الختام. لله خواتيم تحو وعثاء الطريق، ويضع في آخر الصبر من الطيب ما يجعل صاحبه يحمد كل خطوةٍ شاقةٍ أوصلته إليه.

وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ

هنا تبلغ الآيات مركزها التربوي: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾. لم يبلغ القرآن غريزة التنافس، ولم يطلب من الإنسان أن يعيش بلا طموح، بل أعاد توجيه طموحه إلى ما يستحق. المشكلة ليست في أن تريد السبق، بل في الميدان الذي اخترته للسباق؛ وليست في قوة رغبتك، بل في الشيء الذي منحتَه هذه القوة.

الناس يتنافسون بطبيعتهم: في المال، والمناصب، والشهرة، والمكانة، والمظاهر، وعدد المصنفين. يراقب أحدهم ما في يد غيره، فيشعر أن نقصه لا يمكن فيما فقد من الفضيلة، بل فيما فاتته من الزينة. وقد ينفق عمره كاملاً ليتقدم خطوة في سباقٍ لا يصل بأحدٍ إلى مكان؛ كلها بلغ مرتبة رأى فوقها مرتبة، وكلها امتلك شيئاً تحولت عينه إلى ما لم يملك، حتى يموت متعباً من الركض دون أن يسأل: إلى أين؟

في أول السورة كان المطففون صورةً منحرفةً للتنافس؛ أراد كل واحدٍ منهم أن يزيد نصيبه ولو نقصت أنصبة الآخرين. إنه تنافسٌ يقوم على الاستحواذ: لكي أرحج يجب أن تخسر، ولكي أعلو يجب أن أخفضك. أما التنافس في الخير فلا يقتضي أن تسلب غيرك؛ إذا ازدادت برّاً لم ينقص من بر أخيك شيء، وإذا اقتربت من الله لم تغلق الطريق دونه، وإذا شجّعك صلاحه على الصلاح صار تفوقه عوناً لك لا تهديداً.

وهذا هو التنافس الذي يطهر القلب من الحسد؛ تنظر إلى الطائع فلا تتمنى زوال نعمته، بل تتمنى أن تبلغ مثل صدقه. ترى كريماً فتتعلم الكرم، وعالمًا فتشتاق إلى العلم، وصابراً فتستحي من جزعك، ومخلصاً فتراجع نيتك. إنهم لا يضيّقون عليك الميدان، بل يكشفون لك اتساعه.

ولم يقل القرآن: وفي الدنيا فليتنافس المتنافسون، ولا في إعجاب الناس، ولا في جمع ما يتركونه عند الموت؛ بل قال: ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾، مشيراً إلى النعيم والرحيق والختام الطيب. هنا

ينبغي أن تستيقظ الهمم، وهنا يستحق الإنسان أن يسهر ويتعب ويجاهد. فإن كان لا بد من غيره، فلتكن غيره من قلبٍ سبقك إلى الخشوع؛ وإن كان لا بد من سباق، فليكن إلى عملٍ يرفع الكآب؛ وإن كان لا بد من طموح، فليكن طموحاً لا يضعه الموت تحت التراب.

تحرير الرغبة لا قتلها

لا يريد القرآن قتل الرغبة في نفس الإنسان؛ لأن الرغبة قوةٌ يمكن أن ترفعه إذا استقامت قبلتها. لكنه يحررها من الأشياء الصغيرة التي تتنكر في هيئة الغايات الكبرى. فالمال وسيلة، والمنصب وسيلة، والسمعة ظلٌّ عابر؛ فإذا تحولت الوسائل إلى غايات، صار الإنسان أصغر مما يملك، وصارت روحه خادمةً لأشياء خلقت أصلاً لتخدم حياته.

إن قوله: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ﴾ أمرٌ يستنهض الطاقة؛ فطريق البر ليس نحولاً ولا انسحاباً من عمارة الحياة، بل بذلٌ وإعطاء يطلب رضوان الله في كل ميدان. التاجر يتنافس في أن يكون أصدق، والحاكم في أن يكون أعدل، والعالم في أن يكون أشد إخلاصاً وأدق علماً، والكاتب في أن يقول الحق بأجمل بيان دون أن يبيع الحقيقة للثناء، والغني في أن يكون أكثر بذلاً، والفقير في أن يكون أعف وأصبر.

والتنافس المشروع لا يعني احتقار من تأخر، بل إعانتته؛ لأنك لا تريد المجد لنفسك، وإنما تريد الوصول إلى الله. وقد يكون أعظم سبقك أن تأخذ بيد غيرك، وأرفع درجاتك أن تفسح الطريق لمتحاج، وأصدق انتصار لك أن تنجو من رغبة الانتصار الشخصي. سباق الآخرة عجيب: كلما أعنت منافسك على بلوغ الخير، ازدادت أنت قرباً من الغاية.

وَمَرَّاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ

ثم يعود وصف الشراب: ﴿وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾. وتسني من العلو، وهي عينٌ عاليةٌ رفيعةٌ القدر، يمزج من مائها شراب الأبرار. وكأن العلو الذي سكن اسم عليين يعود هنا في اسم تسني، فتتآلف جهة الكتاب مع مصدر الشراب: أعمالهم ارتفعت، فكان جزاؤهم من عينٍ عالية.

إن الجزء من جنس الطريق؛ من رفع نفسه عن الدنيا، سُقي من تسني؛ ومن لم يرض أن يهبط إلى الخيانة، رفع الله شرابه ومقامه. وليس العلو هنا استكباراً على الخلق، بل تحرراً من سُفل الهوى. الإنسان لا يعلو حين يرى نفسه فوق الناس، وإنما يعلو حين يرتفع عن ظلمهم؛ ولا يسمو حين يحتقر الضعيف، بل حين يحمي حقه ولو عارض ذلك مصلحته.

والمزج يدل على زيادة الكرامة وتحسين الشراب، فالرحيق خالص طيب، ثم يمزج من تسني. نعيمٌ يضاف إلى نعيم، وطيبٌ يرفعه طيب؛ لأن عطاء الآخرة لا يأتي بقدر الكفاية، بل بفيض الكرم. في الدنيا يقيس المطفف حتى لا يزيد للآخر ذرة، أما الله الكريم فيهب الأبرار فوق ما تصوروا، ويضيف إلى الرحيق من تسني، ويجعل ختامه مسكاً.

ما أبعد ما بين كرم الله وتطفيف الإنسان! الإنسان يضيق بالزيادة في حق أخيه، والله يضاعف له الحسنة، ويعطيه فوق أمله، ويكافئ عمراً محدوداً بخلود لا ينفد. ولو عرف العبد سعة كرم ربه لاستحيا أن يضيق على خلقه، ولتعلم من فضل الله معنى الوفاء والإحسان.

عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ

ثم يقول: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾. ما كان ممزوجاً للأبرار يشرب منه المقربون شرباً خاصاً، فيظهر تفاوت الدرجات داخل أهل النعيم. فالجنة ليست منزلةً واحدة، كما أن

القلوب في الدنيا ليست على مقامٍ واحد؛ هناك أبرار، وهناك مقربون، وكلٌّ بحسب صدقه وعمله وفضل الله عليه.

وهذا التفاوت لا يورث أهل الجنة حسداً ولا حسرة؛ فقد نُزعت أمراض الصدور، لكن ذكره في الدنيا يوقظ الهمم. لا تقل: يكفيني أدنى النجاة، فإن القلب الذي عرف كرم الله يستحي أن تكون غايته أقل العطاء مع قدرته على طلب القرب. المؤمن لا يعمل على عقلية الحد الأدنى، ولا يسأل دائماً: ما أقل ما ينبغي؟ بل يسأل: ما أحب الأعمال إلى الله؟ كيف أكون أصدق؟ كيف أرتقي من أداء الواجب إلى سعة البر، ومن سعة البر إلى شوق المقربين؟

القرب من الله ليس دعوى وجدانيةً بلا أثر؛ له علاماتٌ في السلوك: إخلاصٌ في السر، ووفاءٌ عند القدرة على الخيانة، ورحمةٌ بالخلق، وخوفٌ من ظلمهم، ومجاهدةٌ للهوى، ودوام افتقارٍ إلى الله. وكلما اقترب العبد من مراد ربه، ابتعد عن مركبة نفسه؛ فلا يمكن لقلبٍ يطلب القرب أن يبني طريقه على حقوقٍ مسلوبة وقلوبٍ مكسورة.

وقد جاءت العين هنا في نهاية مشهد الشراب، لكن نبعها الحقيقي يبدأ في الدنيا. كل طاعة خفية قطرة، وكل صبرٍ قطرة، وكل حقٍّ ترده قطرة، وكل مرةٍ تختار فيها الله على هواك تفتح لك مجرى نحو تسنيم. نحن لا نرى الآن إلا مشقة الحفر، أما الماء فينتظر في دارٍ لا عطش بعدها.

أيُّ شيءٍ يستحق عمرك؟

يضع هذا المقطع الإنسان أمام سؤالٍ لا يمكن الهرب منه: فيمَ يتنافس؟ فالمرء يتشكل بما يطارده؛ إذا طارد المال بوصفه الغاية، صار قلبه رقماً، وإذا طارد إعجاب الناس صار أسير عيونهم، وإذا نافس في القرب والبر اتسعت روحه حتى تصبح الدنيا في يده لا في قلبه.

كل ميدانٍ يمنح جوائزه من جنسه: من نافس في الشهرة نال ألسنةً قد تتقلب عليه، ومن نافس في المال نال شيئاً يتركه، ومن نافس في السلطان عاش خائفاً ممن ينازعه، أما من نافس في البر فنال قلباً أصلح في الدنيا، وكتاباً أرفع في الآخرة، ونعيماً ورحيقاً وتسنيماً.

ليست المشكلة أن يمتلك الإنسان الدنيا، بل أن يمتلكه؛ ولا أن يخج، بل أن يصبح النجاح عنده الاسم الآخر لرضا الناس؛ ولا أن يسابق في العمل، بل أن ينسى أثناء السباق الموعد الذي يتجه إليه الجميع. إن الآية لا تقول: اتركوا الميادين، بل تقول: صححوا غايتها. اجعل علمك طريقاً إلى عليين، ومالك زاداً إلى تسنيم، ومنصبك فرصة لإقامة الميزان، وقلبك أمانةً ترفع كتابك، لا سلعةً تطفف بها وعي الناس.

وهكذا ينتقل القرآن بالرغبة من حفنةٍ منقوصة في سوق الدنيا إلى رحيقٍ مختوم في دار الخلود. يريك المطفف وهو يخني على الميزان بحثاً عن زيادةٍ يسيرة، ثم يريك الأبرار على الأرائك يُسقون من تسنيم؛ لكي تفهم أن المعركة لم تكن يوماً بين من ربح ومن خسر في السوق، بل بين من عرف موضع الربح ومن أخطأه.

فيا من أتعبك سباق الناس، وأرهقك النظر إلى ما في أيديهم: غير الميدان، لا قدرتك على الركن؛ وطهر غايتك، لا قوة طموحك. لا تنافسهم في شيءٍ يتركونه جميعاً عند الباب الأخير، بل نافس في عملٍ يدخل معك القبر ويخرج معك منه، ويكتب لك في عليين، ويشرق في وجهك نضرةً، ويعود إليك رحيقاً ختامه مسك.

وفي ذلك وحده، لا في فتات الدنيا الذي يتنازعه المطففون، فليتنافس المتنافسون.

الفصل السابع

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ: حين تتحول السخرية إلى سلاح ضد
الطمأنينة

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۖ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۖ وَإِذَا
انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۖ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ۖ وَمَا أَرْسَلُوا
عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾

بعد أن رفعت السورة أبصارنا إلى عليين، وأجلست الأبرار على الأرائك، وسقتهم من
الرحيق المختوم، تعود بنا إلى الدنيا؛ لا لتقطع مشهد النعيم، بل لتكشف الطريق الذي عبره
أولئك الأبرار قبل أن يصلوا إليه. فالوجوه التي تعلوها هناك نضرة النعيم كانت هنا عرضةً
للضحك والتغامز، والذين يشربون من تسنيم كانوا في أعين المجرمين مادةً للسخرية، والذين
شهد كتابهم المقربون مرّوا يوماً بين الناس كأنهم غرباء لا يفهمون الحياة.

إن السورة لا تعرض نعيم الأبرار منفصلاً عن جراح الطريق؛ لأن الصبر لا تُعرف قيمته إلا
إذا عُرِف ما صبر عليه أصحابه. لقد عاشوا في بيئةٍ لم تكتف برفض إيمانهم، بل حاولت أن
تجعل الإيمان نفسه مصدر نجل، وأن تحوّل الاستقامة إلى هيئةٍ مضحكة، والظهير إلى
سداجة، والثبات إلى قصورٍ في فهم العالم. وهنا تصبح السخرية أكثر من كلمة؛ تصبح

محاولةً لإعادة تشكيل وعي المؤمن بنفسه، حتى ينظر إلى يقينه بعيون خصومه، ويخجل من النور لأنه رأى أهل الظلام يضحكون.

إِنَّ الَّذِينَ أُجِرُوا

لم تقل الآيات: إن الذين اختلفوا معهم، ولا الذين لم يقتنعوا بما آمنوا به، بل قالت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجِرُوا﴾. فالضحك هنا ليس مزاحاً عابراً بين فريقين، وإنما سلوكٌ صادر عن إجرام استقر في النفوس. إنه ضحكٌ يتغذى من احتقار الحق وأهله، ويريد أن يجعل من الألم الذي يصيب المؤمنين مشهداً للتسلية.

والجرمة ليست في صوت الضحكة وحده، بل في البنية النفسية التي أنتجتها: أن يجد الإنسان متعته في إذلال غيره، وأن يشعر بقوته حين يرى الحياء على وجه من يسخر منه، وأن يتخذ ضعف المظلوم فرصةً للاستعراض. هذه لذةٌ مريضة؛ لأنها لا تكتفي بغياب الرحمة، بل تتلذذ بما كان ينبغي أن يستدعي الرحمة.

وقد يكون الضحك أحياناً قناعاً للخوف. المجرمون يرون المؤمن مختلفاً عنهم؛ لا يستطيعون شراء ضميره بسهولة، ولا يجدون في شهواتهم ما يغيره أن يبيع يقينه، فيشعرون أن وجوده نفسه اتهامٌ صامت. إنه لا يحتاج إلى أن يعظمهم في كل لحظة؛ يكفي أن يمتنع عما يفعلون حتى يذكركم بأن لهم خياراً آخر لم يسلكوه. وحين يعجزون عن إسقاط حجته، يحاولون إسقاط هيئته بالضحك.

إن السخرية قد تكون الحيلة الأخيرة للعاجز عن المناقشة. الفكرة الجادة تطلب جواباً، أما الضحكة فتخلق وهمًا بأن القضية لا تستحق الجواب أصلاً. فإذا لم يملك الإنسان برهاناً،

صنع نكتة؛ وإذا عجز عن هدم المعنى، هاجم هيئة حامله؛ وإذا شعر أن الحق يضيق عليه، حاول أن يجعل أهله صغاراً في عين الجمهور.

لكن القرآن ينزع عن هذا الضحك سلطته منذ اللحظة الأولى، فيسمي الضاحكين مجرمين والمضحوك منهم الذين آمنوا. ما أبعد المسافة بين تسمية الأرض وتسمية السماء! في المشهد الأرضي يبدو الأولون واثقين أقوياء، والآخرين موضع تهكم؛ لكن الوحي يكتب العنوان الحقيقي فوق كل فريق، فلا يكون ارتفاع الصوت دليل حق، ولا كثرة الضاحكين دليلاً على أن المضحك عليه مخطئ.

كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ

يقول الله: ﴿كَانُوا﴾؛ فيضع فعلهم كله في إطار الماضي، مع أنهم حين كانوا يضحكون ظنوا أن اللحظة ملكهم، وأن مشهد التفوق سيستمر. لكن القرآن يروي ضحكهم كما يروي شيء انتهى؛ لأن كل سلطة في الدنيا، مهما بدت ممتدة، ستدخل يوماً في باب «كان». كانوا يضحكون، كانوا يتغامزون، كانوا يعودون مسرورين؛ أما الآن فقد سقطت المسرحية وبقي الحساب.

كم تحمل كانوا من عزاء المؤمنين المبثلي! إنها تذكرة بأن ما يحاصره الآن سيتحول إلى خبر، وأن اليد التي تشير إليه ساخرة ستسكن، وأن المجلس الذي يضج بالاستهزاء سيتفرق. الألم يحاول إقناع صاحبه بأنه أبدي، لكن القرآن يضعه داخل الزمن: كان، ثم مضى؛ أما ما عند الله فباقٍ لا تصيرُهُ الأيام ماضياً.

والآية لا تقول إنهم ضحكوا مع المؤمنين، بل منهم؛ أي جعلوهم موضوعاً للضحك. فالضحك الذي كان يمكن أن يكون مساحةً للأنس تحول إلى أداة تجريد من الكرامة، وحاجز يفصل

الجماعة المستكبرة عن لا يشبهها. إنهم لا يتواصلون مع المؤمن بوصفه إنساناً، بل يعرضونه أمام بعضهم كشيء طريف، ويلغون صوته ليصبح مادةً في حكايتهم.

وهذه من طرائق الظلم النفسي: أن يسلب المستهزئ من خصمه حق تعريف نفسه، ثم يعيد تقديمه للناس في صورة مشوهة. لا يناقش ما يؤمن به، بل يصنع له نسخةً هزلية يسهل الضحك عليها. وهكذا لا تعود المعركة مع حقيقة المؤمن، وإنما مع رسمٍ ساخر ابتدعه المجرم ثم نسبه إليه.

وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ

المرحلة الثانية أشد خفاءً: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ﴾. إنها سخرية الإشارة، وحركة العين، وتواطؤ الوجه، لغةٌ لا تحتاج إلى صوت، لكنها تبلغ القلب بحدّة. قد يمر المؤمن فلا يسمع كلمةً صريحة يستطيع الرد عليها، غير أنه يرى النظرات تتبادل، والابتسامات المسمومة تنتقل، ويشعر أنه دخل مساحةً اتفق أهلها على احتقاره دون أن يمنحوه حتى شرف المواجهة.

والتغامر فعلٌ جماعي، كل واحدٍ يؤكد للآخر أن استهزاءهم مشروع، وأن ضيقتهم تستحق ما ينالها. وهكذا تصنع الجماعة من التكرار حقيقةً زائفة: ما دام الجميع يضحكون، فلا بد أن في المضحك عليه عيباً. لكن كثرة المشاركين لا تطهر الجريمة؛ قد يتقاسم الناس الإثم كما يتقاسمون النكتة، ويشجع بعضهم بعضاً على القسوة حتى يفعلوا في الجماعة ما كان الواحد منهم يستحي أن يفعله منفرداً.

إن الإنسان داخل الحشد قد يفقد بعض مسؤوليته في وهمه، فيقول: لم أبدأ أنا، كلهم فعلوا، لم تكن إلا إشارة. لكن الكتاب المرقوم لا يذيب الفرد في الجماعة؛ كل غمرة لها صاحب،

وكل ابتسامة تحريض مكتوبة، وكل مرة كان يستطيع فيها أن يصمت أو ينكر ثم شارك، هي اختياره هو.

وفي الآية حماية لآلام يستهن بها الناس؛ فالتغاضى ربما لا يترك جرحاً في الجسد ولا قضية في المحكمة، لكنه قد يجرح الروح ويجعل الإنسان غريباً في المكان. والله الذي سجل نقص الميكل سجل أيضاً غمزة العين؛ لأن عدله لا يقتصر على الأموال المسلوقة، بل يشمل الكرامات المجروحة. قد يعجز المؤمن عن إثبات ما وقع عليه، لكن الوحي يذكر هذا الفعل الدقيق باسمه، وكأن الله يقول له: رأيت الإشارة التي حسبوا أنها مرت، وعلمت ما تركته في قلبك.

وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ

لا تنتهي السخرية عند الطريق؛ إنهم يحملونها إلى بيوتهم ومجالسهم: ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾. يعودون مسرورين، يتفكهون بما صنعوا، وربما أعادوا المشهد وزادوا فيه، ليحصلوا من أذى المؤمن على لذة ثانية بعد لذة الموقف.

وهنا تنكشف قسوة مضاعفة: لم يندموا حين خلوا إلى أهلهم، ولم يسأل أحدهم نفسه إن كان قد جرح إنساناً أو افترى عليه، بل اتخذوا من الجريمة ذكراً مسلية. إن القلب السليم إذا أخطأ في حق غيره حمل الخطأ معه همّاً، أما القلب الذي علاه الران فيحمل ظلم الآخرين طرفةً.

وكلمة ﴿فَكِهِينَ﴾ تكشف نشوة الجماعة بنفسها؛ إنهم سعداء لا لأنهم صنعوا خيراً، بل لأنهم أشعروا مؤمناً بالوحشة. وهذا انقلاب في الفطرة: أن يصبح الألم الذي ينبغي أن يحزنك مصدر فرح، وأن ترى الحياء ضعفاً، والعفة تخلفاً، والثبات فرصةً للسخرية.

وقد تأسس في بعض البيئات ثقافةً كاملةً على هذا التفكك؛ تتناقل الجماعة ألقاباً ساخرة، وصوراً مشوهة، وحكاياتٍ منتقصة عن مخالفيها، حتى يكبر الأبناء وهم يظنون أن الاحتقار جزءٌ من الهوية. لا يتعرفون إلى الآخر من كلامه وحقيقته، بل من النكتة التي صُنعت عنه. وهكذا يصبح البيت، الذي يفترض أن يكون مكان تربية الرحمة، ورشةً لإعادة إنتاج الاستعلاء.

إن الكلمات التي نقولها عن الناس داخل بيوتنا ليست بلا أثر؛ نحن لا نصف الآخرين فقط، بل نربي قلوب أهلنا على طريقة رؤيتهم. حين يرى الطفل أباه يسخر من ضعيف، يتعلم أن القوة تبيح الإهانة؛ وحين يسمعه ينصف خصمه، يتعلم أن الحق أكبر من الهوى. فكل مجلسٍ عائلي يصنع ميزاناً في الجيل التالي: إما ميزاناً يزن البشر بالعدل، وإما ميزاناً يطفف كراماتهم.

وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ

لا يكتفي المجرمون بالسخرية، بل يصدرون حكماً نهائياً: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾. وبعد أن أضاعوا الموازين، نصبوا أنفسهم قضاةً على الهداية والضلال. يا للمفارقة: الذين يكذبون بيوم الدين، ويغطي الران قلوبهم، يرون أنفسهم مؤهلين لتحديد الطريق!

إن الهوى لا يرضى بأن يمارس الباطل في صمت؛ يريد أيضاً أن يحمل شهادة الحق، وأن ينقل اسم الضلال إلى خصمه. فلو اعترف المجرم بأن المؤمن على هدى، لا يضطر إلى الاعتراف بانحرافه هو؛ ولذلك يقلب التسميات: يصبح الثابت ضالاً، والمستهزئ بصيراً، والوفي متخلفاً، والمطفف ذكياً. إنها محاولة لإصلاح صورة النفس لا بإصلاح الفعل، بل بتشويه المعيار.

وربما لم يكن وصف المؤمنين بالضلال مقصوداً به الإقناع الفكري بقدر ما كان أداة للعزل الاجتماعي. حين يُلصق بالمؤمن وصفٌ منقّر، يشعر الناس أن الاقتراب منه خطراً على صورتهم، فيبتعدون لا لأنهم بحثوا فكرته، بل لأنهم يخشون أن تمتد إليهم السخرية. وهكذا تُستخدم اللغة لبناء سياجٍ حول أهل الحق، حتى يبقوا وحدهم ويبدو الباطل كأنه الإجماع.

لكن الإيمان الحق لا يستمد يقينه من عدد الواقفين معه. فقد يقف الإنسان وحده وتكون معه الحقيقة، وقد يصيح الحشد في اتجاهٍ ويكون ضلاله أكثر كثافةً لا أقل. إن كثرة الأصوات تمنح الباطل قوةً اجتماعية، لكنها لا تمنحه ذرةً من البرهان. والذين قالوا: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾ لم يغيروا موقع المؤمنين عند الله، بل كشفوا موقعهم هم من العدل.

وفي هذا تسليّةٌ لكل من اتهم بسبب استقامته؛ فليس كل اتهامٍ علامة خطأ، وقد يكون بعضه ثمناً للثبات. لكن هذه التسليّة لا تعفي المؤمن من مراجعة نفسه؛ فليس كل من سخر منه الناس مصيباً بالضرورة، ولا كل مخالفةٍ بطولة. إنما المرجع إلى الوحي والحق والعدل، لا إلى مدح الناس ولا ذمهم. المؤمن لا يقول: أنا على صواب لأنهم يكرهوني، بل يقول: أزن نفسي بميزان الله، فإن ثبت لي الحق لم تزعجني سخريتهم.

وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ

تأتي الآية كضربة هادئةٍ لكبريائهم: ﴿وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾. من كلفهم بتبعية المؤمنين؟ ومن نصبهم أوصياء على سرائرهم؟ ومن أعطاهم سجلاً يحصون به حركاتهم ويصدرون عليهم الأحكام؟ لم يُرسلوا لذلك، ولم تُمنح لهم هذه الولاية، لكن الفراغ الداخلي كثيراً ما يدفع الإنسان إلى الانشغال بقلوب الآخرين كي يهرب من قلبه.

إنهم تركوا كتابهم يُملأ بالفجور، واشغلوها بتقييم كُتاب المؤمنين؛ نسوا أنهم سيقومون لرب العالمين، وتفرغوا لتحديد من هو الضال ومن هو المهتدي. وهذه حيلةٌ نفسية شائعة: كلما خاف الإنسان من محاسبة نفسه، أقام محكمةً للناس. يفتش في نياتهم، ويحصى عيوبهم، ويجد في سقوطهم راحةً مؤقتة؛ لأن النظر إلى بقع الآخرين يشغله عن الران المتراكم على قلبه.

وما أكثر الذين يعيشون كأنهم حُفَاطٌ على الخلق: يراقبون التفاصيل، ويؤولون النيات، ويتبعون الهفوات، ثم يخرجون من كل مشهدٍ بحكمٍ لا يقبل الاستئناف. ولو صرفوا بعض تلك الدقة إلى أنفسهم، لرأوا من الخلل ما يشغلهم عن التلذذ بأخطاء الناس.

الآية لا تمنع النصيحة ولا الأمر بالمعروف ولا التقويم القائم على العلم والعدل؛ فهذه وظائف شرعية لها شروطها وأخلاقيها. لكنها تفضح التلصص الأخلاقي الذي يتنكر في صورة الغيرة، والوصاية التي لا تريد هداية الآخر بل إدانته، والنقد الذي يفرح بالعترة أكثر مما يفرح بالإصلاح. الناصح يتألم لخطأ أخيه ويرجو نجاته، أما المستهزئ فيسعد به لأنه يمنحه مادةً للتفوق.

ومن عرف أنه ليس حافظاً على الناس، تحرر من ادعاء معرفة سرائرهم. يزن الظاهر بالحق، لكنه يكل الباطن إلى الله؛ ينصح دون استعلاء، ويرفض انخطأ دون أن يسلب المخطئ إنسانيته، ويعلم أن الهداية فضلٌ لا وثيقة امتياز. وربما كان الذي يسخر منه اليوم أقرب إلى الله منه غداً، وربما انقلبت القلوب وبقيت كلماته شاهدةً عليه.

السخرية بوصفها ضغطاً اجتماعياً

إن هذا المقطع يرسم منظومةً كاملةً للاضطهاد النفسي: ضحكٌ مباشر، وتغامرٌ خفي، وحكاياتٌ ساهرة تُنقل إلى المجالس، ثم حكمٌ بالضلال، وأخيراً ادعاء الوصاية. ليست أفعالاً متفرقة، بل عمليةٌ تهدف إلى زعزعة المؤمن من الداخل. يريدون أن يقولوا له: انظر، الجميع يضحكون؛ فلا بد أن فيك خللاً. يريدون أن يحولوا وحدتك إلى برهانٍ ضدك، وغربتك إلى تهمة.

والإنسان كائنٌ يتأثر بنظرات الجماعة؛ قد يحتمل الجوع ولا يحتمل الاحتقار، وقد يصبر على فقد المال ويضعف أمام شعوره بأنه مثار ضحك. ولذلك كانت السخرية من أشد أسلحة الإكراه الناعم؛ فهي لا تضع السلاسل في اليد، بل تحاول وضعها في الوعي، حتى يراقب الإنسان نفسه بعين المستهزئ، فيعدل سلوكه لا لأن الحق تغير، بل خوفاً من الضحك.

هنا يحتاج المؤمن إلى مرجع أعلى من الجمهور. فإذا صار الناس مرآته الوحيدة، حطمته نظراتهم؛ أما إذا رأى نفسه أولاً في ميزان الله، استطاع أن يضع أحكام البشر في أجماعها. لا يعني هذا احتقار الناس أو رفض كل نقد، بل يعني ألا يمنح السخرية سلطة البرهان. يفحص ما يقال له بعقلٍ وصدق؛ فإن وجد حقاً قبله ولو جاء من خصم، وإن وجد تهكماً بلا حجة لم يجعل ضحكاتهم قاضياً على يقينه.

إن الذين يشهد كتابهم المقربون لا يضرهم أن يتغامر بهم المجرمون، ومن ينتظر نضرة النعيم لا يبيع وجهه ليحصل على ابتسامة القوم. لقد اختاروا جمهوراً آخر، وموعداً آخر، ومقياساً آخر؛ ولذلك استطاعوا أن يمشوا في الطريق وإن كان تصفيق الأرض كله في الجهة المقابلة. لا ترد السخرية بسخرية

ومع ما تحمله الآيات من تسليّة للمؤمنين، فإنها لا تمنحهم إذناً بأن يتشبهوا بالمجرمين. فليس الثبات أن تنتظر فرصةً لتسخر من سخر منك، ولا أن تبني هويتك على كراهية من آذاك. المؤمن لا يستمد أخلاقه من سلوك خصمه؛ لأن خصمه إذا استطاع أن يدفعه إلى القسوة فقد غير صورته، ولو لم يغير عقيدته.

قد يرد الحق بالحجة، ويمنع الظلم، ويحفظ كرامته، لكنه لا يتلذذ بإذلال الناس. يعرف ألم السخرية، فينبغي أن يكون أبعد الناس عن توريثه لغيره. وقد يكون من بركة الجرح أن يجعله أكثر رحمةً بالمجروحين؛ فيتحول ما أرادوه أداةً لكسره إلى بابٍ لنضجه.

والقرآن حين يسميهم مجرمين لا يعلم المؤمن لغة الشتيمة، بل يكشف الحقيقة بميزان الله. ثمة فرق بين الحكم الأخلاقي المبني على الوحي، وبين السباب الذي يقصد الانتقام للنفس. الأول يوضح الطريق ويحيي القيم، والثاني قد يكون تطفيفاً جديداً تمنح فيه أنفسنا حق الإهانة لأننا تعرضنا لها.

أي ضحكٍ سيبقى؟

في هذا المشهد يضحك المجرمون، لكن السورة لم تنته بعد؛ فكلمة ﴿كَانُوا﴾ تحمل في طياتها وعد الانقلاب. سيأتي يومٌ يعاد فيه توزيع الضحك لا بحسب القوة المؤقتة، بل بحسب الحقيقة الأخيرة. سيكتشف الذين جعلوا المؤمنين مادةً للتسليّة أنهم هم الذين عاشوا داخل أكبر خدعة، وأن الضحكة التي ظنوها إعلان انتصار لم تكن إلا صوت الغفلة قبل انكشاف المصير.

لكن المؤمن لا يحتاج إلى استعجال ذلك الانقلاب، ولا إلى أن يصنعه بيده على صورة انتقامٍ شخصي. يكفيهِ أن يثبت، وأن يحفظ كتابه من التلوث بأخلاق مستهزئيه، وأن يترك

للعَدل الإلهي كلمته الأخيرة. فالزمن قد يمنح الباطل منصة، لكنه لا يمنحه الخاتمة؛ وقد يؤخر إنصاف المظلوم، لكنه لا يملك إلغاء يوم الدين.

وهكذا تكشف الآيات أن طريق عليين لم يكن مفروشا بتصفيق الناس، بل مرّ بين ضحكاتهم وغمزاتهم وأحكامهم. لقد وصل الأبرار إلى نضرة النعيم لأنهم لم يجعلوا سخريتهم سبباً للتراجع، ولم يستبدلوا رضا الله بقبول الجماعة. آلمتهم الكلمات؛ فهم بشر، لكن الألم لم يغير قبلتهم، والوحدة لم تدفعهم إلى بيع يقينهم.

فإذا مررت يوماً بمجلس يتغامز أهله لأنك رفضت خيانة، أو ضحكوا من أمانتك في زمنٍ يصف الغش بالمهارة، أو عدّوا عفتك عجزاً، وثباتك ضلالاً، فلا تجعل ضحكهم ميزانك. تذكر أن الذين يضحكون الآن ليسوا حَفَظَةً عليك، ولا يملكون كتابة نهايتك، وأن فوق مجالسهم كتاباً مرقوماً، وفوق أحكامهم حكماً لا يطفف.

وسوف تمضي هذه الضحكات إلى باب كانوا، أما ما ثبتَّ عليه الله فسيمضي إلى عليين.

الفصل الثامن

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ: حين ينقلب المشهد وتسترد الحقيقة صوتها

قال الله تعالى:

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿١٠٠﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿١٠١﴾ هَلْ ثُبُوبَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

تصل السورة إلى مشهدها الأخير، فإذا الكلمة التي استعملها المجرمون لإيلاام المؤمنين تعود في ميزان آخر، وإذا الوجوه التي كانت هدفاً للضحك تجلس على الأرائك آمنةً تنظر، وإذا أولئك الذين نصبوا أنفسهم قضاةً على الإيمان يقفون داخل الجزء الذي كذبوا به. لم يتغير الحق بين المشهدين، لكن الستار رُفع؛ ولم يصبح المؤمنون مؤمنين في الآخرة بعد أن كانوا ضالين في الدنيا، وإنما انكشفت الحقيقة التي حجبها القوة والسخرية والران.

إنه انقلابٌ كامل، لكنه ليس انقلاباً عبثياً تبادلاً فيه الأطراف مواقع الغلبة فقط؛ بل إقامةً للميزان. فالقرآن لا يصور الكون ساحةً ينتصر فيها فريق ثم ينتقم من الفريق الآخر لأن القوة انتقلت إليه، وإنما يصوره داراً للعدل ينكشف فيها ما كان مستوراً، ويُعطى كل موقفٍ اسمه الحقيقي، ويصل كل فعلٍ إلى ثمرته. الذين ضحكوا في الدنيا لم يُعاقبوا مجرد أنهم ضحكوا، بل لأن ضحكهم كان وجهاً من وجوه الاستكبار والتكذيب والإجرام؛ والذين يضحكون في الآخرة لا يضحكون سخريةً من ضعفٍ أو شامةٍ في بريء، بل يشهدون تحقق وعد الله، وسقوط الباطل الذي جعل من الحق مادةً للاستهزاء.

فَالْيَوْمَ: اليوم الذي لا يشبه الأمس

تبدأ الآية بالفاء: ﴿فَالْيَوْمَ﴾، فتصل النتيجة بسببها، والحصاد بالبذرة التي سبقته. كانوا يضحكون، فالיום يظهر أثر ضحكهم؛ كانوا يتغامزون، فالיום سقطت الإشارات الخفية تحت علم لا يخفى عليه شيء؛ كانوا يعودون إلى أهلهم فكهن، فالיום لم يعد ثمة بيتٌ يختبئون فيه من الحقيقة ولا أهلٌ يصنعون لهم وهم البراءة.

كلمة اليوم في القرآن حين تتصل بالقيامة ليست مجرد تحديد للزمن، بل إعلان أن مرحلة كاملة انتهت وبدأت مرحلة لا رجوع منها. كان الأمس يوم العمل، واليوم يوم الجزاء؛ كان الأمس متسعا للتوبة والاعتذار ورد الحقوق، واليوم انقطعت القدرة على صنع صفحة جديدة. في الدنيا كان يمكن للمطفف أن يعيد ما نقص، وللمستهزئ أن يعتذر، وللمكذب أن يؤمن، ولصاحب القلب الذي علاه الران أن يغسله بالتوبة؛ أما اليوم فقد أغلق كتاب الاختيار وفتح كتاب النتيجة.

ولعل أشد ما في القيامة أنها تجعل الإنسان يرى قيمة الزمن بعد أن خرج الزمن من يده. كل دقيقة في الدنيا كانت تحمل إمكان التحول؛ يستطيع فيها أن يقول: أخطأت، وأن يرجع خطوة عن الطريق. لكنها حين تمضي لا تفقد قيمتها، بل تنتقل إلى الكآب بما صنع فيها. فإذا جاء اليوم الأخير، عرف الإنسان أن أعظم ثرواته لم تكن المال الذي جمعه، بل الفرص التي كانت متاحة له ليغير مصيره.

إن الفجار كانوا يظنون اليوم الآخر بعيدا، حتى صار هو اليوم الذي لا يوم بعده، وصارت الدنيا التي ملأت حسهم أمسا لا يستطيعون العودة إليه. وهذا هو خداع الزمن: الحاضر يبدو

ممتدًا ما دمنّا فيه، فإذا عبر انكمش حتى يصبح ذكرى، ثم يأتي المستقبل الذي كما نؤجّله فيحتل الوجود كله.

الَّذِينَ آمَنُوا: الاسم الذي بقي حين سقطت الألقاب

كان المجرمون يقولون عن المؤمنين: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَصَالُونَ﴾، لكن الله يسميهم هنا مرةً أخرى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾. لم تستطع كثرة الساخرين أن تغير اسمهم عند الله، ولم تنجح الدعاية في إعادة تعريفهم في ميزان الحقيقة. قد تحاصر التهمة الإنسان في الأرض، وتلتصق به في أعين جيله، لكن الاسم الذي يكتبه الله له أبقى من كل الأسماء التي يطلقها الناس.

لقد كانوا الذين آمنوا حين ضحك منهم، وظلوا الذين آمنوا حين انقلب المشهد. لم يمنحهم النعيم صحةً إيمانهم، بل كشف صحة ما كانوا عليه. وهذه طمأنينةٌ لكل من خاف أن يبتلعه التشويه: الحقيقة قد تُحاصر، لكنها لا تتحول إلى باطل؛ والبراءة قد تُطمس في السجلات البشرية، لكنها تبقى مكتوبةً في الكتاب المرقوم.

ومع ذلك، فإن هذا الاسم لا يناله الإنسان بمجرد دعواه؛ فقد يقول المرء: أنا مؤمن، ثم يطفف ويظلم ويتغامز، فيحمل شعار الفريق وأخلاق خصومه. الإيمان الذي تنصره السورة هو الإيمان الذي أثمر براءً، ووفاءً، وتصديقاً بيوم الدين، وصبراً على السخرية، لا مجرد انتماءٍ لفظي يمنح صاحبه حصانةً من محاسبة نفسه.

إن من أشد صور التناقض أن يقرأ الإنسان مصير المطففين ثم يطمئن إلى نفسه لأنه ينتسب إلى المؤمنين، بينما موازينه في الحياة مزدوجة. السورة لا تسمح لنا بأن نهرب من ميزانها إلى الأسماء؛ فقد يكون المرء صحيح الشعار، مطفف السلوك، يتكبر يوم الدين بلسان حاله وإن أقر به لسانه. والعبرة ليست بما يكتبه الإنسان فوق صورته، بل بما يكتب في كتابه.

مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ

هنا ينعكس اتجاه الضحك: كان المجرمون من الذين آمنوا يضحكون، فأصبح الذين آمنوا من الكفار يضحكون. جاء التعبير على نسقٍ متقابل، حتى يبدو المشهدان ككفتي ميزانٍ استقرتا أخيراً في موضعهما. ما صدر ظهلاً يعود جزاءً، وما كان استعلاءً ينقلب حسرة، وما بدا انتصاراً يكشف أنه كان المقدمة الطويلة للهزيمة.

لكن ضحك المؤمنين ليس نسخةً أخلاقيةً من ضحك الكافرين في الدنيا؛ فلو كان الأمر مجرد تبادلٍ للسماتة، لما اختلف الفريقان في جوهرهما. ضحك أولئك كان اعتداءً على أهل الحق وهم في زمن الامتحان، أما ضحك المؤمنين فهو سرورٌ بصدق وعد الله وانكشاف عدله وسقوط الاستكبار. إنهم لا يظلمون من ظلمهم، ولا يزدون في العقوبة شيئاً من أهوائهم؛ فالجزاء لله، وقد طهر قلوب أهل الجنة من الغل.

إن الضحك هنا ضحك الحقيقة بعد أن طالت عليها السخرية، وضحك اليقين حين رأى الوعد متحققاً، وضحك الناجي الذي يتذكر كيف كان أهل الباطل يعدون سفينته ضرباً من الجنون، فإذا الماء يعلو وهم الذين لم يستعدوا. إنها ليست لذةً بعذاب الخلق لذاته، بل شهود للعدل الإلهي الذي وضع النهاية في موضعها.

وفي ذلك تعزيةٌ للمؤمن، لكنها تعزيةٌ ينبغي أن تظل طاهرةً من روح الانتقام. فالذي ثبت اليوم لا يثبت لكي يشمت غداً، بل لكي يرضى الله عنه وينجو؛ ولا ينبغي أن يتحول وعد الإنصاف إلى وقودٍ للحقد، وإنما إلى قوةٍ على الصبر. إنه يترك الحساب لله، لأن يقينه بعدل الله يغنيه عن أن يحمل الحكمة داخل صدره في كل لحظة.

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ

تكرر العبارة التي وردت في وصف نعيم الأبرار: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾. والتكرار هنا يثبت مكانهم قبل أن يصف نظرهم؛ إنهم لم يعودوا واقفين في طرقات الدنيا يتلقون الغمز، بل جلسوا في مقام الكرامة. لقد انقضى زمن الدفاع عن النفس، ولم يعودوا محتاجين إلى إثبات شيء؛ فوقعهم نفسه صار شهادةً على صدقهم.

في الدنيا كان المجرمون هم الذين ينظرون إليهم: يراقبون مشيتهم وهيئتهم، ويتصيدون ما يصنعون، ويحولونهم إلى مادةٍ للفحص والسخرية. أما اليوم، فقد انتقلت جهة النظر؛ المؤمنون على الأرائك ينظرون، والذين ادعوا أنهم حافظون عليهم أصبحوا هم المشهود مصيرهم. لقد كانوا يحددون في تفاصيل المؤمنين، لكنهم لم ينظروا إلى الطريق الذي يسوقهم إليه إجرامهم.

وهنا يظهر الفرق بين نظرين: نظري في الدنيا ملوث بالاحتقار، ونظري في الآخرة مطهر بالعدل. الأول يبحث عن مادةٍ للغمز، والثاني يشهد تمام حكم الله. الأول نظرٌ من قلبٍ علاه الران، والثاني نظرٌ من وجوهٍ تعلوها نضرة النعيم.

والأرائك تقابل طرقات السخرية؛ أولئك كانوا يمرون بالمؤمنين ويتغامزون، أما هؤلاء فقد انتهوا إلى راحةٍ مستقرة لا يمر بهم فيها أذى. إنها صورةٌ بليغة لترميم الكرامة: كل وقفةٍ شعر فيها المؤمن بالوحشة عوّضت أمناً، وكل نظرةٍ جارحة قابلتها نضرة، وكل غمرةٍ مرت على قلبه دون أن يملك ردها وجدها في كتابٍ لم يهملها.

وقد لا يرى المؤمن في الدنيا تمام الإنصاف؛ ربما يموت والاثام ما زال يطارده، أو يرحل مستهزؤه قبل أن يعتذروا، أو تبقى روايتهم هي الأشهر بين الناس. لكن الآخرة ليست ترضيةً نفسية لمن عجزوا عن الانتصار، بل هي المحكمة التي لا يكتمل معنى العدل دونها.

هناك لا يحتاج المظلوم إلى حملة لتصحيح صورته؛ يكفي أن يجلس على الأريكة التي اختار الله له، فيسقط كل اقتراء أمام حقيقة المقام.

هَلْ تُؤَبِّبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ

تختم السورة بسؤال: ﴿هَلْ تُؤَبِّبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. والثواب هنا بمعنى الجزاء؛ أي هل جوزوا بما كانوا يعملون؟ والسؤال تقريرى، يحمل في ذاته الجواب: نعم، لقد عاد إليهم عملهم جزاءً، ولم يضع شيء مما صنعوه.

ولم تقل الآية: ما كانوا يقولون فحسب، بل ﴿مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ لأن السخرية لم تكن كلمات عارضة، بل فعلاً متكرراً وطريقةً في الحياة. كانوا يطففون، ويكذبون، ويعتدون، ويأثمون، ويصفون الآيات بالأساطير، ويضحكون ويتغامزون، ثم يحكمون على المؤمنين بالضلال. كل ذلك اجتمع في كلمة يفعلون، كما اجتمعت أعمالهم من قبل في كتاب مرقوم.

إنها خاتمةٌ تعيدنا إلى مفتتح السورة؛ فقد بدأت بأناس يفعلون شيئاً في الميزان، وانتهت بالسؤال عما كانوا يفعلون. وبين البداية والنهاية تأكيد أن الأفعال لا تبخر؛ تتحول إلى كتاب، والكتاب إلى مصير، والمصير إلى جزاء. ما يخرج من يدك اليوم سيعود إليك غداً في صورة تناسبه؛ فإن أخرجت عدلاً عاد أمناء، وإن أخرجت رحمةً عادت نعيمًا، وإن أخرجت ظلمًا لم يضع لمجرد أن ضحيته عجزت عن الرد.

وتستعمل الآية لفظاً من مادة الثواب، وكأن في ذلك لونا من المقابلة والتحكم العادل: هذه مكافأة ما صنعتم، وهذا العائد الذي رتبته تجارتكم. لقد حسب المطففون الربح بما دخل

خزائهم ولم يحسبوا ما دخل صحائفهم؛ فإذا الحساب الأخير يكشف أنهم لم يكونوا يتاجرون في المكايل وحدها، بل كانوا يتاجرون بمصيرهم.

ما أخطر أن ينجح الإنسان في خطته ويفشل في مآله! قد ينقص الميزان فلا يكتشفه أحد، فيظن أن الحيلة نجحت؛ وقد يسخر من مؤمن فيضحك المجلس كله، فيظن أنه انتصر؛ وقد يشوه بريئاً فتنتشر روايته، فيحسب أن المعركة حُسمت. لكن النجاح الأخلاقي لا يُقاس بتحقيق الغرض العاجل، بل بالجواب عن السؤال الأخير: ماذا عاد إليك من فعلك حين وقف الناس لرب العالمين؟

الجزء من جنس العمل

تنظم السورة كلها بقانونٍ دقيق: كل فعلٍ يحمل في داخله بذرة جزائه. المطففون أخسروا الناس، فأخسروا أنفسهم؛ والفجار اختاروا السفول، فكان كتابهم في سجين؛ وغطوا قلوبهم بالكسب السيئ، فكان لهم الران والحجاب؛ والأبرار ارتفعوا بالبر، فكان كتابهم في عليين؛ وحفظوا قلوبهم من كدر المعصية، فسُقوا رحيقاً خالصاً؛ واستقاموا رغم السخرية، فجلسوا على الأرائك؛ وضُحك منهم ظلماً، فضحكوا عند ظهور العدل.

ليس الجزء شيئاً ملصقاً بالعمل من خارجه، بل كثيراً ما يكون كشفاً لحقيقته المستترة. الخيانة التي بدت زيادةً كانت نقصاناً، والطاعة التي بدت حرماناً كانت نعيمًا، والسخرية التي بدت قوةً كانت عاراً، والصبر الذي بدا ضعفاً كان طريق الكرامة. القيامة لا تصنع هذه الحقائق من جديد، بل ترفع الغطاء عنها.

وهذا الفهم يجعل المؤمن أكثر بصيرةً في الدنيا؛ فلا ينتظر الآخرة كي يعرف قيمة فعله، بل يرى النهاية كامنةً في البداية. حين يهمل بظلمٍ يتذكر أن الظلم ظلمةٌ قبل الجحيم، وحين يوفي حقاً

يشعر أن الوفاء قطعةٌ من نعيم القلب قبل الجنة. إن الطاعة ليست مجرد ثمنٍ مؤجل، بل لها ثمرتها الآن: صفاءٌ واتساعٌ وحريةٌ من أسر الهوى؛ والمعصية ليست متعةً مجانيةً تتبعها عقوبة منفصلة، بل تبدأ عقوبتها في القلب من اللحظة التي تصنع فيه راءاً.

لا تستعجل المشهد الأخير

يعاني المؤمن أحياناً لأنه يرى الفصل الأوسط من القصة ويظنه خاتمتها. يرى الباطل يضحك، والحق موضع غمز، فيسأل: أين العدل؟ لكن السورة تعلبه ألا يقرأ المشهد قبل نهايته؛ فالذين يضحكون اليوم قد ورد ذكرهم بصيغة الماضي، والذين يضحك منهم ينتظرهم يوم آخر.

ليس معنى ذلك أن يتخلى المؤمن عن مقاومة الظلم وإقامة العدل في الدنيا، فالعدل تكليفٌ حاضر، والسكوت عن الحقوق قد يكون مشاركةً في التظيف. لكنه يعمل دون أن يجعل نجاحه عاجل شرطاً ليقينه؛ يبذل ما يستطيع، ويقول الحق، ويحمي المظلوم، ثم يعلم أن تمام العدل ليس محصوراً في قدرته. هذه المعرفة تمنحه قوةً بلا طغيان، وصبراً بلا استسلام، وأملًا لا تحطمه النتائج المؤقتة.

إن استعجال الإنصاف قد يدفع المظلوم إلى أن يتحول نسخةً أخرى من ظالمه؛ يريد استعادة كرامته بأي وسيلة، فيطفف بدوره ويختلق ويسيء. أما من أيقن بالمشهد الأخير، فإنه يحفظ ميزانه حتى في الخصومة؛ لأنه لا يريد أن يربح القضية ويخسر كتابه، ولا أن يصل إلى حقه بطريقٍ ينقله من صف الأبرار إلى أخلاق المجرمين.

الضحكة الأخيرة للحقيقة

تسكت السورة بعد السؤال الأخير، ولا تحتاج إلى إضافةٍ تشرح الجواب؛ فالمشهد كامل، والميزان استقر، والحقيقة قالت كلمتها. لقد بدأ الكتاب القرآني القصير بصوت الويل، وانتهى بسؤال الجزاء؛ وبينهما رحلةٌ من السوق إلى القيامة، ومن الميكال إلى القلب، ومن القلب إلى الكتاب، ومن الكتاب إلى المصير.

لقد ظن المجرمون أن الضحك إعلان تفوقهم، ولم يفهموا أن الضحكة لا تحسم الحقيقة. قد يضحك الجاهل من العالم لأنه لم يفهمه، ويضحك الفاسد من الأمين لأنه لا يستطيع تخيل نزاهته، ويضحك المستعبد للشهوة ممن تحرر منها، لكن الضحك لا يغيّر قيمة المواقف؛ إنه قد يكشف الضاحك أكثر مما ينتقص من المضحك عليه.

أما ضحك المؤمنين في الآخرة فهو انتهاء زمن الالتباس. لقد ظلوا في الدنيا يرون الباطل مزهواً بنفسه، وربما سأل بعضهم في لحظات الألم: هل أخطأنا الطريق؟ فإذا هم على الأرائك ينظرون، وقد صار ما آمنوا به عياناً. حينئذٍ يضحكون لا لأن الرحمة ماتت فيهم، بل لأن الوهم الذي أراد سحقهم قد انهار، ولأن الحق الذي حملوه غرباء صار هو الوجود كله.

وهكذا تُطمئن السورة قلب المؤمن: لا تخف من أن تكون الحقيقة قليلة الأنصار، ولا تجعل سخرتهم سبباً لأن تشك في ميزان الله، ولا تبدل ملامحك كي ترضي عيوناً ستُغلق. سيأتي يومٌ لا ينفع فيه التغماز، ولا تحمي فيه الجماعة أفرادها، ولا تستطيع الأسماء المشوهة أن تقف أمام الكتاب المرقوم.

في ذلك اليوم يعرف كل إنسانٍ قيمة ما كان يفعل؛ ويعلم المطفف أن الحبة التي استصغرها كانت أثقل من وهمه، ويعلم المستهزئ أن الضحكة التي تسلى بها عادت سؤالاً، ويعلم المؤمن

أن الصبر الذي أوجعه لم يضع، وأن الله كان يرى غمزاتهم كلها، ويحفظ له كل لحظةٍ اختار فيها الثبات على القبول الزائف.

لقد انتهت آيات السورة، لكن سؤالها الأخير لا يزال مفتوحاً في حياتنا: ما الجزاء الذي نهيئه لأنفسنا بما نفعل؟

فالإنسان لا يمشي نحو مصيره فحسب؛ إنه يبينه، فعلاً بعد فعل، وميزاناً بعد ميزان، وكلمةً بعد كلمة، حتى يلقاه كاملاً، ثم يقال له بلسان الحقيقة التي لا تُطفئ:
هذا ما كنتَ تفعل.

حين يستقيم الميزان في القلب

لم تكن سورة المطففين منذ افتتاحها حديثاً عن حفةٍ ناقصةٍ في مكيال فحسب، بل كانت كشفاً بالغ الدقة عن الخلل الذي يبدأ في أعماق الإنسان قبل أن يظهر في يده؛ فالمكيال لا يطفف من تلقاء نفسه، والميزان لا يميل بإرادته، وإنما تسبقهما نفسٌ رضيت أن تجعل حقها أثقل من حقوق الآخرين، وأن تستوفي إذا أخذت، وتُخسر إذا أعطت. ومن هنا كانت السورة رحلةً في باطن العدالة، تبدأ من حركةٍ خفيةٍ في السوق، ثم نتعقبها حتى تبلغ جذورها في التصور، وآثارها في القلب، وكتابتها في الصحائف، ونهايتها عند قيام الناس لرب العالمين.

لقد أرادت السورة أن تخلص الإنسان من وهمٍ خطير: أن الظلم لا يكون عظيماً إلا إذا كان كثيراً، وأن الحقوق الصغيرة يمكن أن تسقط من حساب الأخلاق. فجاء الوعيد منذ الكلمة الأولى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، ليقرر أن الجريمة لا تُقاس بمقدار ما أخذ وحده، بل بما كشفه الأخذ من فساد الضمير. قد تكون الحبة المنقوصة قليلةً في ميزان التجارة، لكنها ثقيلةٌ في ميزان الإنسان؛ لأنها تعني أن صاحبها قد رضي أن يزيد دنياه من نقصان أخيه، وأن يبني راحته على خسارة من وثق به.

وإذا كانت صورة التطفيف الأولى متعلقةً بالكيل والوزن، فإن معناها الأخلاقي يمتد إلى الحياة كلها. فقد يطفف الإنسان في حكمه، فيستوفي فضائل من يحب، ويخسر من يكره كل فضل؛ ويطفف في علاقاته، فيطالب بالتقدير ولا يقدر، ويريد الوفاء ولا يفي، ويحفظ إساءة

الآخرين وينسى إساءته؛ ويطفف في مسؤوليته، فيأخذ حق المنصب ويهمل واجبه، أو يقبض أجر العمل كاملاً ويمنحه من جهده بعضاً ناقصاً. وهكذا تتحول السورة إلى مرآة يقف أمامها كل إنسان، لا التاجر وحده؛ لأنها تسأله عن موازينه الخفية التي لا يراها الناس، لكنها لا تخفى على الله.

وقد كشفت السورة أن أصل هذا الاعوجاج ليس خلاً منهاً فحسب، بل ضعف استحضار الآخرة: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۖ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۚ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. فالذي يستحضر قيامه بين يدي الله لا يستطيع أن يرى غياب أعين البشر فرصة للخيانة؛ لأن في قلبه عيناً من المراقبة لا تنام. أما حين تغيب القيامة عن القرار، وإن بقي خبرها حاضراً على اللسان، يصبح الإفلات من رقابة الخلق براءة زائفة، ويحسب الإنسان أن الحق الذي لم يستطع صاحبه إثباته قد انتهى وجوده.

لكن حقوق العباد لا تضيع لأنها كانت بلا شهود، ولا تموت لأن أصحابها ماتوا، ولا يحوها مرور الزمن؛ فكل شيء ينتقل من لحظته إلى كتابه. ولذلك فتحت السورة أمامنا سجلين متقابلين: سجين وعليين؛ لتعلمنا أن الأعمال لا تتبخر، وإنما تتخذ جهةً ومقاماً ومصيراً. هناك كتاب الفجار في سجين، وهنا كتاب الأبرار في عليين؛ هناك انحدارُ صنعة الخيانة والإصرار، وهنا ارتفاعُ صنعه البر والوفاء. وبين السجلين يكتب الإنسان نفسه كل يوم، لا بالحر، بل بما يكسبه قلبه وتفعله جوارحه.

لقد بدا المطفف أول الأمر كأنه يأخذ من غيره، ثم كشفت السورة أنه كان ينقص من نفسه. كل مرة أخسر فيها الناس أضاف شيئاً إلى ماله، لكنه انتزع شيئاً من نور قلبه؛ وكلما برر خيانتته تكاثفت عليه طبقة من الران، حتى لم يعد الذنب عنده فعلةً تؤله، بل صار

فكرةٌ يدافع عنها، وطريقةٌ يرى بها العالم. وهنا جاء التشخيص القرآني المهيّب: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

إن الران لا يهبط على القلب بلا سبب، وإنما تصنعه الاختيارات المتكررة: ذنبٌ يُستغفر، ثم ذنبٌ يُبرر، ثم ذنبٌ يُجَاهر به، حتى تصبح الحساسية الأخلاقية عبئاً يريد صاحبها التخلص منه. ومن أشد العقوبات أن يفقد الإنسان ألمه من المعصية، فيحسب موت الإحساس سلامة، ويظن أنه تعافى من تأنيب الضمير، بينما يكون قد فقد القوة التي كانت تستطيع إعادته. فالجرح الذي يتألم ما زال حياً، أما القلب الذي لا يشعر بشيء فقد يكون الران قد قطع بينه وبين النور مسافةً بعيدة.

ومن ران الدنيا إلى حجاب الآخرة يمتد الطريق: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾. لقد صنعوا حجابهم بما كسبوا، وأعرضوا عن آيات الله حين كانت تثلّ عليهم، حتى انتهوا إلى أشد الحرمان: أن يُحجبوا عن كرامة القرب والرضوان، على المعنى اللائق بجلال الله سبحانه من غير تشبيهٍ ولا تكييف؛ فهو ليس كمثله شيء. ثم لم يقف المصير عند الحجاب، بل أعقبه صلي الجحيم، وقيل لهم ما يجمع الحسرة كلها: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

لم يكن التّكذيب قد ألغى الحقيقة، وإنما ألغى استعدادهم لها. ولم تكن الآخرة أسطورةً لأنهم سموها كذلك؛ فقد استطاعوا تغيير الأسماء في الدنيا، لكنهم لم يستطيعوا تغيير المصائر. سموا الخيانة ذكاءً، والجشع طموحاً، والاستقامة ضللاً، والوحي أساطير؛ حتى جاءت القيامة فردّت لكل شيء اسمه، ولكل فعلٍ حقيقته، ولكل إنسانٍ ما كسب.

وفي الجهة الأخرى يشرق كتاب الأبرار في عليين، فينكشف أن البر ليس فعلاً صغيراً ضاع في زحام الحياة، بل ارتقاءً مستمر. كل حقٍّ أداه صاحبه مع قدرته على حبسه، وكل كلمةٍ

عدل قالها ولو أغضبت هواه، وكل أمانة ردها حين لم يطالبه بها أحد، وكل شهوة تركها لله، كانت درجةً يعلو بها كتابه قبل أن يعلم موضعه.

إن الأبرار هم النقيض الأخلاقي للمطففين؛ فالمطفف يستوفي ويخسر، أما البار فيوفي ثم يرتقي من العدل إلى الإحسان. المطفف يسجن نفسه في ضيق المصلحة، والبار يتسع حتى يشعر بحق غيره كما يشعر بحقه. المطفف يجعل نفسه مركز الميزان، أما البار فيجعل أمر الله هو الميزان، فلا تبدل عنده القيم بتبدل الأشخاص، ولا يكون له عدلٌ مع من يحب وظلمٌ مع من يكره.

ومن هنا كان كتاب الأبرار كتاباً مرقوماً يشهده المقربون؛ فما ضاع الإحسان لأنه لم يصفق له الناس، ولا صغرت الأمانة لأنها جرت في الخفاء. لقد رآها الله، وحفظها كتابٌ لا يطفف، وشهدها من المقرين مَنْ شاء الله أن يشهدها. ومن عرف أن عمله مشهودٌ في السماء، لم يبع إخلاصه ليشترى شهرةً في الأرض، ولم يحزن إذا عبر خيره بين الناس بلا احتفال؛ لأن القبول عند الله أبقي من كل تصفيق.

ثم انتقلت السورة من علو الكآب إلى نعيم أصحابه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾. كانوا في الدنيا يزنون رغباتهم بميزان التقوى، فأدخلوا نعيمًا لا يخالطه خوفٌ من الفقد؛ وجاهدوا أنفسهم كي لا يسكبوا المرارة في حياة الآخرين، فسقوا من رحيقٍ مختومٍ ختامه مسك. وقد يكون طريق الطاعة بدءًا بمشقة، لكن ختامه طيب؛ كما قد تبدأ المعصية بلذة، ثم يكون ختامها رانًا وجبابًا وحيماً. والعاقِل لا يقيس الطرق بأول خطوة، بل يسأل عن خاتمها.

وفي قلب ذلك المشهد جاء النداء الذي يعيد توجيه طاقة الإنسان كلها: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾. لم يمنع القرآن التنافس، بل حرره من صغار الغايات. فليست

المشكلة أن يطلب الإنسان السبق، وإنما أن ينفق عمره في سباقٍ تنتهي جوائزه عند القبر. يتنافس الناس في المال والمناصب والشهرة، ثم يتركون ما جمعوا ويمضون بما كتبوا؛ أما التنافس الحقيقي فهو في الصدق والبر والوفاء، وفي قلبٍ لا يطفف، وعملٍ يصعد إلى عليين، وقربٍ يهني صاحبه للشرب من تسنيم.

والتنافس في الخير لا يقتضي أن يخسر الآخر كي ترجح؛ بل ربما كان أعظم سبقك أن تعينه على الوصول. إن ازددت علماً لم ينقص علمه، وإن ازددت برّاً لم يضق عليه ميدان البر، وإن أخذت بيده إلى الله ارتفعتما معاً. وهنا يظهر الفرق بين سباق الدنيا وسباق الآخرة: الأول كثيراً ما يبني مجد الفرد على إخماد غيره، أما الثاني فيجعل عون الآخرين طريقاً إلى رفعة صاحبه.

ثم عرضت السورة امتحاناً آخر من امتحانات الأبرار: أن يثبتوا تحت ضغط السخرية. فقد كان المجرمون يضحكون من المؤمنين، ويتغامزون بهم، ويعودون إلى أهلهم فكهن، ثم ينصبون أنفسهم قضاةً فيقولون: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَصَالُونَ﴾. أرادوا أن يجعلوا الإيمان مصدر نجل، وأن يحولوا الاستقامة إلى مادةٍ للتندر، حتى ينظر المؤمن إلى نفسه بعيونهم ويترك يقينه طلباً للقبول.

لكن السورة نزعت عن تخزيتهم سلطة الحكم حين قالت: ﴿وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾. لم يُكَلِّفُوا بحراسة سرائر المؤمنين، ولم تُعط لهم مفاتيح الهداية والضلال، ولم يصبح ضحكهم برهاناً لأنهم كانوا كثيرين. قد يمنح الجمهور الباطل صوتاً مرتفعاً، لكنه لا يمنحه حقيقة؛ وقد يجعل المستقيم غريباً، لكنه لا يغير موقعه عند الله.

والذين كانوا يضحك منهم لم يسلكوا طريقهم بلا ألم؛ فالكلمة تجرح، والغمزة تؤلم، ووحشة الجماعة ثقيلة على النفس. لكنهم لم يسمحوا للأذى أن يغير قبلتهم، ولم يردوا التطفيف بتطفيف، ولا السخرية بسخرية، ولا الظلم بظلم. عرفوا أن المؤمن لا يستمد أخلاقه من خصمه، وأن انتصاره الحقيقي ليس أن يهزم الآخر بوسائله، بل أن يمنعه من تحويله إلى صورة أخرى منه.

ثم جاء المشهد الأخير ليضع كل شيء في مكانه: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿١٠٠﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾. لقد انقلب اتجاه النظر، وسقطت سلطة التغامز، وصار الذين كانوا مطاردين بالأحكام جالسين في مقام الكرامة. وليس ضحكهم هناك تشفياً ظالماً، بل سرورٌ بتحقيق وعد الله وظهور عدله وسقوط الوهم الذي جعل من الحق مادةً للسخرية.

وتختم السورة بسؤالها الفاصل: ﴿هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. نعم، لقد عاد الفعل إلى صاحبه، واكتملت الدائرة: ما نقصوه من حقوق الناس وجدوه محفوظاً، وما أطلقوه من ضحكات عاد إليهم جزاءً، وما وصفوه بالأسطورة صار هو الحقيقة التي لا مهرب منها. فالجزاء لم يكن أمراً غريباً عن أعمالهم، بل كان ظهوراً كاملاً لما خبأته تلك الأعمال في باطنها.

وهكذا تنتهي السورة من حيث بدأت: عند الفعل والجزاء، والميزان والعدل، والأخذ والعطاء. بدأت بإنسانٍ ينقص مقداراً صغيراً من حق غيره، وانتهت بإنسانٍ يلقي ما كان يفعل كاملاً غير منقوص. وبين البداية والنهاية تصحح السورة تعريف الربح والخسارة: ليس الربح من زاد ماله إذا نقص قلبه، ولا الخسارة من ترك الحرام إذا ارتفع كغابه؛ قد يمتلئ الكف ويفرغ الإنسان، وقد تفرغ اليد من المكسب المحرم ويمتلئ القلب نوراً.

إن أعظم موازين السورة ليس الميزان القائم في السوق، بل الميزان القائم داخل الإنسان. فإذا استقام القلب، استقامت الكفة والعبارة والنظرة والحكم؛ وإذا اختل القلب، لم تنفع دقة الأدوات ولا أناقة الشعارات. لذلك فإن أول الإصلاح ليس أن نفتش عن المطففين خارجنا، بل أن نسأل أنفسنا: أين نستوفي ونُحسّر؟ في أي علاقة نريد حقناً كاملاً ونؤدي بعض الواجب؟ وأي إنسان نزن أخطاءه بميزانٍ لا نزن به أنفسنا؟ وأي حقٍّ صغير أقنعنا أنفسنا أنه لا يستحق الرد؟

ليست هذه الأسئلة أبواباً لجلد الذات، بل أبواباً للنجاة؛ فما دام الإنسان في دار العمل، يستطيع أن يصحح ميزانه، ويرد الحقوق، ويعتذر، ويتوب، ويغسل الران قبل أن يشتد. إن التوبة رحمةٌ تعيد إلى القلب حساسيته، وترد الإنسان من طريق سجين إلى طريق العلو، فلا يأس مع صدق الرجوع، ولا ذنب أكبر من مغفرة الله لمن تاب، وأصلح ما استطاع، ورد إلى العباد مظالمهم.

يا قارئ هذه السورة: لا تسأل بعد اليوم كم يبلغ مقدار ما أخذت، بل اسأل ماذا فعل الأخذ بقلبك؛ ولا تطمئن لأن الناس لم يكتشفوا نقصان الميزان، فثمة كتابٌ مرقوم؛ ولا تحزن إن أوفيت ولم يشكرك أحد، فكتاب الأبرار في عليين يشهده المقربون. لا تجعل ضحك الناس ميزان يقينك، ولا تجعل تصفيقهم دليل سلامة طريقك؛ زن نفسك بخبر الله، وأدِّ الحق لأن له رباً يحفظه، لا لأن صاحبه قادرٌ على المطالبة به.

وإذا اشتد عليك ثمن الأمانة، فتذكر الرحيق المختوم؛ وإذا أغرتك زيادةُ حرمة، فتذكر سجيناً؛ وإذا ثقلت عليك مجاهدة الهوى، فتذكر تسليماً؛ وإذا ضحكوا من ثباتك، فتذكر

الأرائك؛ وإذا خُيِّل إليك أن فعلاً صغيراً سيمضي بلا أثر، فتذكر اليوم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين.

إن الحياة كلها ميزان، وكل يوم كفة، وكل اختيار مقدار، والإنسان يزن نفسه قبل أن يزن للآخرين. فمن وقى، فإنما يوفي لنجاة قلبه؛ ومن طفف، فإن أول ما ينقصه هو نفسه. ولن يكون السؤال الأخير: كم استطعت أن تأخذ؟ بل: ماذا صنعت بما أُعطيت؟ وهل أقيمت العدل حين كان الهوى يدعوك إلى الميل؟ وهل خرج الناس من معاملاتك مكتملين، أم تركت في حقوقهم وقلوبهم نقصاً تحمله إلى يوم الدين؟

اللهم اجعل لنا قلوباً لا يعلوها الران، وموازن لا تميل بها الأهواء، وأيدي تؤدي الحقوق كاملة، وألسنة تعدل في الرضا والغضب، وأعمالاً تُكتب في عليين، ووجوهاً تعرف فيها نضرة النعيم. واجعلنا ممن صدقوا بيوم الدين فاستقاموا، ومن الأبرار الذين إذا قدروا أن يطففوا أوفوا، وإذا قدروا أن يظلموا عدلوا، وإذا تنحروا عنهم ثبتوا، وإذا دُعوا إلى الخير تنافسوا؛ حتى نلقاك بكتابٍ لا نخجل من نشره، وقلبٍ لم يبع آخرته بزيادةٍ زائلة، برحمتك يا أرحم الراحمين.

وهنا يكتمل تدبر سورة المطففين من مطلع الوعيد إلى سؤال الجزاء، ومن اختلال الميزان إلى استقامة المصير؛ سورة تعلمنا أن السرائر كلها ستتكشف، وأن الأعمال كلها ستعود، وأن الحق مهما بدا قليلاً لا يصغر عند الله، وأن النجاة تبدأ حين يستقيم الميزان في القلب قبل أن يستقيم في اليد.